الفصل الخامس

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل الصريح

رأينا فى حديثنا عن مراكز الشعر لهذا العصر كيف تحضرت المدينة ومكة وغرقتا إلى آذانهما فى الرَّفه والنعيم ، بتأثير ما صبَّ فيهما من أموال الفتوح والرقيق الأجنبى ، وكيف أخذ هذا الرقيق يَسُدّ حاجة الشباب المتعطِّل من اللهو بما كان يقدَّم له من غناء وموسيقى ، وقد استطاع من خلال ملاءمته بين الغناء العربى القديم وما ثقفه من غناء الفرس والروم أن ينفذ إلى نظرية جديدة وضع على أساسها الألحان والأنغام التى وقَّع عليها الشعر ، وظلت هذه النظرية مسيطرة على غنائنا العربى قروناً طويلة .

ويخيَّل إلى الإنسان كأنما فرغت المدينتان الكبيرتان فى الحجاز للغناء ، فالناس يختلفون فيهما إلى المغنين والمغنيات ، حتى النُّسَّاك والفقهاء ، فليس هناك من لا ينعم بالغناء ، حتى النساء كن يتخذن الأسباب لسماعه فى مجالسهن . وفى كتاب الأغانى أخبار كثيرة تصور كلفَ سكان المدينتين به وأنه أصبح شغلهم الشاغل[1] . وقدشاعت فى هذا الجو المعطرة أنفاسه بالموسيقى موجةٌ واسعة من المرح ، ورقيت الأذواق ودقت الأحاسيس وعاش الشعراء للحب والغزل فهو الموضوع الذى كان يطلبه المغنون والمغنيات ويستهوى الناسَ من رجال ونساء . وبذلك كادت تختفى من المدينتين الموضوعات الأخرى للشعر ، فقلما نجد فيهما مديحاً أو هجاء ، إنما نجد الغزل يشيع على كل لسان . وأخذ يتطور بتأثير الغناء الذى عاصره تطوراً واسعاً ، إذ أصبحت كثرته مقطوعات قصيرة ، وعَدَلَ الشعراء إلى الأوزان الخفيفة من مثل الرَّمل والسريع والخفيف والمتقارب والهزج

(١) انظر فى ذلك كتابنا : الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية (طبع دار المعارف) ص ٩٤ ، ٢٢٧

والوافر ، كما عدلوا إلى مجزوءات الأوزان الطويلة من مثل الكامل والبسيط والرجز ، بل لقد مالوا إلى تجزئة الأوزان الخفيفة من مثل الخفيف والرمل والمتقارب ، حتى يعطوا للمغنين والمغنيات الفرصة كاملة كى يلائموا بين أشعارهم وألحانهم وأنغامهم التى يوقّعونها على آلاتهم الوترية وطبولهم الموسيقية ، فيطيلوا أو يقصروا ويجهروا فى مواضع الجهر ويهمسوا فى مواضع الهمس . وليس ذلك فقط ما أثّر به الغناء الأموى فى الغزل الذى عاصره ، فقد دفع الشعراء إلى اصطناع الألفاظ العذبة السهلة ، حتى يُرْضوا أذواق المستمعين فى هذا المجتمع المتحضر الذى يخاطبونه . وكانت هذه أول دفعة قوية نحو تصفية الشعر العربى من ألفاظه البدوية الجافية .

ولم يختلف هذا الغزل الجديد عن الغزل الجاهلى القديم فى صورته الموسيقية والأسلوبية فحسب ، فقد أخذ يختلف أيضاً فى صورته المعنوية ، إذ لم يعد تشبيباً بالديار وبكاءً على الأطلال ، كما كان الجاهليون يصنعون فى جمهور غزلهم ، بل أصبح غالباً تصويراً لأحاسيس الحب التى سكبها المجتمع الجديد فى نفوس الشعراء . وهو مجتمع ظفرت فيه المرأة العربية بغير قليل من الحرية ، فكانت تَلْقى الرجال وتحادثهم ، وكانت — شأنَ المرأة فى كل عصر — تُعْجَبُ بمن يصف جمالها وتعلق القلوب بها . وينبغى أن نفرق بين الحرية والإباحية ، ففى الأولى يبقى للمرأة وقارها وعفافها ، وفى الثانية تصبح ممتهنة تقبل على اللهو والعبث والمجون ، لا يردُّها وقار ولا حشمة ولا خلق .

وحقاً برزت المرأة فى مكة والمدينة للشباب فى هذا العصر ، ولكنها ظلت تحتفظ بحجاب من الوقار ، كانت فيه لا تضيق بما يقال فيها من غزل ، بل لعلها كانت تحبُّ فيه أن يحظى بغير قليل من الحرارة . وبذلك نفهم إقبال الثُّرَيَّا بنت على بن عبد الله الأموية فى مكة وسُكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة فى المدينة على هذا الغزل ، بل لقد مرَّ بنا أن ابن قيس الرقيات كان يتغنى بنساء ممدوحه مصعب بن الزبير ، وتغنّى بأم البنين فى مدائحه لعبد الملك ، ولم يجد أحدهما فى ذلك حرجاً .

وعلى هذا النحو كان الناس رجالا ونساء فى مكة والمدينة يقبلون على شعر

الغزل، وأخذ الشعراء يُخْضعون ملكاتهم وعواطفهم له ، منهم من يتحفظ ، فيكظم حبه فى نفسه ، فإذا هو حب عذرى نقى طاهر ، وهم أصحاب التقوى والورع مثل عبد الرحمن بن أبى عمّار الجُشَمىّ ناسك مكة وعروة بن أذينة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة فقيهى المدينة . ومنهم من لا يتحفظ ، بل يصرح بحبه وزياراته لمحبوباته ، وهم الجمهور الأكثر ، وعلى رأسهم عمر بن أبى ربيعة والأحوص والعَرْجىّ ، فهم جميعاً يطلبون المرأة ويلحون فى الطلب ، وهم جميعاً يُلقون من حولها شباك الإغراء ، ولا بأس أحياناً من أن يستفزوا أهلها بما يثيرون فى نفوسهم من ريبة ، وبلغ من تيه عمر فى ذلك أن رأيناه يصورها متهالكة عليه تتضرع إليه وتستعطفه ، ونحن نقف قليلا عنده وعند صاحبيه ، لتتضح لنا صورة هذا الغزل الصريح .

عمر[1] بن أبى ربيعة

فى بيت قرشى واسع الثراء ، هو بيت بنى مخزوم ، ولد عمر فى سنة ٢٣ للهجرة ، لأبيه عبد الله بن أبى ربيعة ، ولأم يمنية أو حضرمية تسمى نَجْدا . وكان أبوه فى الذروة من قومه ثراء ، واستعمله الرسول صلى الله عليه وسلم والياً على إقليم من اليمن يسمى الجَنَد ، وظل عليه فى عهد عمر وعثمان ، حتى إذا حُصر الأخير جاء لينصره فسقط عن راحلته قرب مكة فمات سنة خمس وثلاثين . وهو أحد من نزل بأهله فى مكة بعد هجرتهم[2] ، وفيها وُلد له عمر ، وبها نشأ ، ترعاه عين أمه الغريبة ، وكان جميلا فدللته ، يؤازرها فى ذلك ما ورثه عن أبيه من أموال وفيرة .

وإذن فعمر شاعر مكى ، وليس بصحيح أنه من أهل المدينة كما توهم

---

(١) انظر فى ترجمة عمر الأغانى (طبع دار الكتب) ١/٦١ وما بعدها ، ٩/٢٣٩ وما بعدها والشعر والشعراء ٢/٥٣٥ والموشح ص ٢٠١ والخزانة ١/٢٣٨ ومرآة الجنان لليافعى ١/١٨٢ وابن خلكان وشذرات الذهب ١/٤٠ وأمالى القالى ٢/٥١ ، ٣٠٩ ، وذيل الأمالى ص ٦٨ ، وحديث الأربعاء (طبعة الحلبى) ١/٣٧٢ وما بعدها وشاعر الغزل (فى سلسلة اقرأ) لعباس محمود العقاد وكتابينا : التطور والتجديد فى الشعر الأموى (طبع دار المعارف) ص ٢٣٩ والشعر والغناء فى المدينة ومكة ص ٢٣٩ . وقد نشر شفارتس ديوانه وألحق به دراسة عن حياته وشعره ولغته وأوزانه . ونشر الديوان بمصر وفى بيروت .

(٢) ابن سعد ٥/٣٢٨ .

بعض المعاصرين ، وبنوا دراستهم له على هذا الوهم[١] ، وفى الكامل للمبرد إشارات لذلك كثيرة تنقض هذا الوهم نقضاً[٢] ومما يشهد لذلك شهادة قاطعة قوله :

وأنا امرؤٌ بِقَرارِ مكَّةَ مسْكنى ولها هوايَ فقد سَبَتْ قَلْبِى

وقد عاش حياته للغزل الصريح ، ويسَّر له ثراؤه هذه المعيشة ، فالدنيا دائماً مشرقة باسمة من حوله ، والمغنون والمغنيات من أهل مكة مثل ابن سُرَيْج وابن مِسْجح والغريض يلزمونه ويغنونه فى شعره . حتى لنظن أنهم كانوا يقاسمونه حياته ، فضلا عما كان يعطيهم من عطايا جزيلة[٣] . ويقول الرواة إنه كان ببيته مغنيتان تغنيانه فى أشعاره هما بَنَوم وأسماء . وسرعان ما يطير غزله إلى المدينة ، فإذا مغنوها ومغنياتها من مثل مَعْبد وجميلة يغنون فيه ، ويلم بالمدينة كثيراً ، ويصبح أكبرَ غزلٍ فى عصره ، ولهذا لم يكن غريباً أن يخلِّف أضخم ديوان لا فى عصره فحسب ، بل فى جميع العصور العربية .

وهو فى غزله يُخْضع ملكاته لفن الغناء الذى عاصره ، إذ يستخدم الأوزان الخفيفة والمجزوءة ، حتى يحمِّلها المغنون والمغنيات ما يريدون من ألحان وإيقاعات كما يستخدم لغة سهلة ، فيها عذوبة وحلاوة ، حتى تَفْسح لهم فى روعة النغم . ونراه لا يصطنع أى ثوب من ثياب التكلف ، بل يُظْهرنا على حقيقته فى غزله وأنه لا يزال يتخذ الشباك لكل امرأة جميلة فى مكة ، وتحوَّل إلى مواسم الحج ، يعلن حبه إعلاناً لكل امرأة ذات حسن يلقاها ، يقول :

يَقْصِد الناس للطواف احْتِسابا وذُنوبى مجمـوعةٌ فى الطَّوافِ

وتذهب مواسم الحج ، فيتصدَّى لكل فتاة جميلة بمكة ، وخاصة الثريا بنت على الأموية . وينزل المدينة فيتصدى للقرشيات الجميلات بها من مثل سُكينة بنت الحسين وزينب الجُمَحيَّة . وعلى هذا النحو كان لا يزال يتغزل فى فتيات قريش النبيلات ، ومن ثم وصفَ ترفهن وما كنَّ فيه من نعيم ، وديوانه من خير الدواوين التى تصوِّر ما غرقت فيه القرشيات لهذا العصر من حضارة

(١) انظر عمر بن أبى ربيعة حياته وشعره لجبور طبع بيروت .

(٢) الكامل ص ٣٧٤ ، ٥٧٠ وراجع أخباره فى الأغانى مع مغنى مكة ومع الثريا .

(٣) انظر الأغانى (طبع دار الكتب) ١/٣٥٩ ، ٣/٣٢٢ ، ٤/٢٩٦ ، ٨/٢٠٨ .

وحُلِيٌّ وطيب ؛ على نحو ما نرى فى قوله :

قالتْ ثُرَيَّا لأترابٍ لها قُطُف ... قُمْنَ نُحَيِّى أبا الخطَّاب من كَثَب[1]
فطِرْن طَيْرًا لما قالتْ وشايعها ... مثلُ التماثيل قد مُوِّهْنَ بالذهب
يَرْفلن فى مُطْرَفات السُّوس آونةً ... وفى العتيق من الدِّيباج والقَصَب[2]
ترى عليهن حَلْىَ الدُّرِّ متَّسِقاً ... مع الزبرجد والياقوت كالشهب

ونراه أحياناً يلهج بصبابته وحبه وما يذوق من وجد وألم ، متلطفاً لصاحبته ، ملحًّا على أن تواصله بودها ، مستعطفاً ، متضرعاً ، بمثل قوله :

ما كنت أشعر إلا مذ عرفتكمُ ... أن المضاجع تمسى تُنْبِت الإبَرا
قد لمتُ قلبى وأعيانى بـــواحدةٍ ... فقال لى : لاتَلُمْنى وادْفَعِ القَدرا

ولكن هذا يأتى نادراً فى غزله ، إذ قلما يشكو من هَجْر أو يتألم لصَدٍّ ، فقد تحول بشعره يملؤه تيهاً بنفسه . ويقال إنه كان جميلا ، وكأنما انعكست فيه صورة الحب ، فهو لا يشكو الغرام والعشق ، بل محبوبته هى التى تشكو من ذلك ، فهى التى تحيطه بشباك التضرع والاستعطاف ، وهى التى ما تنى مسهَّدة تتعذب فى حبه وتتمنى لو تراه . واسمعْه يقول على لسان إحدى صواحبه :

تقول إذ أيقنتْ أنى مفارقُها ... ياليتنى مِتُّ قبلَ اليوم يا عمرا

ويقول على لسان ثانية :

ما وافق النفسَ من شىءٍ تُسَرُّ به ... وأعجبَ العينَ إلا فـــوقه عُمَرُ

ويقول عن ثالثة :

قد حلفتْ ليلة الصَّوْرَيْن جاهدةً ... وما على المرء إلا الحلْفُ مجتهدا[3]
لأُختها ولأُخرى من مَناصفها ... لقد وجدتُ به فوق الذى وجدا[4]
لو جُمِّع الناسُ ثم اختير صَفْوهُمُ ... شخصاً من الناس لم أعدل به أحدا

(١) قطف : جمع قطوف وهى بطيئة الخطو . كثب : قريب .
(٢) مطرفات : ثياب نفيسة . السوس : بلد بالمغرب . القصب : الحرير .
(٣) الصوران : موضع قرب المدينة .
(٤) مناصف : جمع منصف كمنبر ، وهو الخادم .

ويصور شغل ثلاث أخوات به ، فيقول :

قالت الكُبْرى أتعرفنَ الفتى قالت الوُسْطَى نعم هذا عُمَرْ
قالت الصُّغْرَى وقد تَيَّمْتهَـا قد عرفناه وهل يَخْفَى القمر

ولم يقف بإعجاب المرأة به عند ذلك الحد ، فقد أخذ يصور كَلَفها به وتصدِّيها له ، وأنها تدور حوله لعلها تجد سبيلا إليه ، وهو فى أثناء ذلك يتدلل ويتمنع ، وهى تسعى إلى الوصول منتهزة كل فرصة ، حتى بين مشاعر الحج ، يقول :

قالتْ لِتِرْبٍ لها تحدِّثها لنُفْسدَنَّ الطَّواف فى عُمَرِ
قومى تصدَّىْ له ليعرفنـا ثم اغمِزيه يا أختَ فى خَفَر
قالتْ لها قد غمزتُه فأَبَى ثم اسبطرَّتْ تَسْعى على أثرى[1]

وعلى هذا النحو نراه فى غزله ، يوقد قلوب الفتيات حبًّا ، وهن يتمنين عطفه وحنانه ، وبذلك يعكس الصورة المألوفة فى الغزل العربى ، إذ لا يزال الشاعر يطلب ويأمل ويتضرع ويرجو العطف والحنان ، بل لا يزال يعلن العشق والهيام مسترحماً مستعطفاً ، أما عند عمر فهذا كله موجود ولكن لا فى تصوير حبه هو وإنما فى تصوير حب الفتيات والنساء له وما يوقدُ به قلوبهن من العشق والصبابة.

فعمر فى غزله معشوق لا عاشق ، أو على الأقل فى جمهور هذا الغزل ، ويستتمُّ خطوط هذه الصورة لا بإعلان الفتيات والنساء حبهن له فحسب ، بل أيضاً بما يصفن من خطوب هذا الحب ، فهن يتحدثن عن هجرانه ، وهن يذقن مرارة الغيرة ويصطلين بنارها المحرقة ، وهن يتألمن من الوشاة ومن فقدهن لعطفه وأنهن لا يجدن عنده إلا الإعراض والصُّدوف ، يقول على لسان إحداهن :

أمن أجلِ واشٍ كاشحٍ بِنَمِيمَةٍ مَشَى بيننا صَدَّقْته لم تكذِّبِ

وأتاح له ذلك أن يصور عواطف المرأة ونفسيتها وما يتعمقها من دقائق الحب وما يثير فى قلبها من المشاعر الرقيقة ، وكيف تتخذ الأسباب لاسترضاء عاشقها حين تراه ينصرف عنها ، وكيف تتقدم لها بعض صديقاتها تحاول أن تعيد الصفاء بينهما ، يقول :

---

(١) اسبطرت : أسرعت

قالتْ على رِقْبَةٍ يوماً لجارتها ما تـأمرين فإن القلبَ قد شُغِلا[١]
فجاوبتْها حصانٌ غير فاحشةٍ بِرَجْعِ قولٍ وأمرٍ لم يكن خطِلا
اقْنَىْ حياءَكِ فى سِتْرٍ وفى كرمٍ فلستِ أولَ أنثى عُلِّقَتْ رجلا[٢]
لا تظهرى حُبَّه حتى أراجعـه إنى سأكفيكه إن لم أمت عَجلا

وترضى خطَّتها وتوصيها أن تكذِّب عنده الوشاة ، وتتوسل إليها أن لا تسرف فى لومه وعذله :

فإن عهدى به واللهُ يحفظه وإن أتى الذنب ممن يكره العَذلا

وتكثر الرسل بينه وبين محبوباته فى ديوانه . ونراه يعمد إلى مراسلة بعضهن ، على شاكلة هذه الرسالة التى أرسل بها إلى الثريا ، وقد سار عنها أو سارت عنه :

كتبتُ إليكِ من بلدى كتـاب مولَّهٍ كَمِـدِ
كئيبٍ واكفِ العينـ ين بالحسرات منفـرد[٣]
يؤرِّقـه لَهِيبُ الشَّو قِ بين السَّحْرِ والكبدِ[٤]
فيمسكُ قلبـه بيـدٍ ويمسح عينـه بِيَدِ

وتردُّ عليه الثريا شعراً[٥] ، وهو يعد أول من اتخذ هذا الأسلوب من تبادل الرسائل بينه وبين صواحبه ، وقد تبعه فيه العباسيون .

ومن أهم ما يَطْبع غزله هذا الحوار القصصى الذى رأيناه على لسان محبوباته يصفن فيه لجاراتهن وأخواتهن وجواريهن حبهن له وهيامهن به . ونراه يعمد أحياناً إلى تصوير اقتحامه لليل والأهوال والأحراس على بعض صواحبه على نحو ما نعرف فى قصيدته :

أمن آل نُعْمٍ أنت غاد فمُبْكِرُ غداة غَد أم رائحٌ فَمُهَجِّرُ[٦]

---

(١) رقبة : انتظار .
(٢) اقنى حياءك : احتفظى به .
(٣) واكف العينين : سائل الدموع .
(٤) السحر : الرئة .
(٥) أغانى (دار الكتب) ١ / ٢٣٥ ومابعدها .
(٦) غاد : من الغدوة وهى البكرة أو أول النهار ، رائح : من الرواح وهو العشى أو من الزوال إلى الغروب . مهجر : من الهاجرة وهى نصف النهار . وانظر فى هذه القصيدة وشرحها المبرد ص ٣٨١ ، ٥٧٠ .

ويمضى فيصور قضاءه الليل فى الحديث معها حتى تباشير الصباح ، وكأنه فى ذلك يحاكى امرأ القيس فى معلقته إذ يصف بعض مغامراته ، ولكن خلافاً واضحاً يقوم بينهما ، فامرؤ القيس يغامر مع نساء متزوجات ، أما عمر فيغامر مع فتيات نبيلات ، وهى عنده مغامرات لا تتعدى اللقاء والمتعة بالحديث . وعمر من هذه الناحية صريح ولكنها صراحة لا تنتهى إلى إباحية ولا إلى إثم . ومن ثَمَّ كنا ننفى القصص التى تزعم أن بعض الخلفاء حين حج نفاه إلى الطائف أو إلى دهلك إحدى جزر البحر الأحمر ، ونظن ظناً أن هذا من انتحال الرواة . ويقولون إنه مات وقد قارب السبعين أو جاوزها[1] ، وإذا صح ذلك يكون قد توفى حوالى سنة ثلاث وتسعين للهجرة .

الأحوص[2]

أوْسى من الأنصار من أهل المدينة ، اسمه عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم ابن ثابت ، وجده عاصم حَمِىَ الدَّبْر أى النَّحْل ، إذ بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بنى لَحْيان فى نَفَر ، فحاربوهم فى يوم يسمى يوم الرَّجيع . ولما قتلوه أرادوا أن يصلبوه ، فحمته الدبر منهم نهاراً حتى إذا جَنَّ الليل أمطرت السماء فاحتمله السَّيْل ، فسمِّى حمىَّ الدبر . وخال أبيه حنظلة بن أبى عامر الذى قُتل يوم أحد وقال عنه الرسول إن الملائكة لتغسله ، وقد افتخر بهما الأحوص جميعاً ، فقال :

غَسَّلتْ خالىَ الملائكة الأَبْـــرَارُ مَيْتاً طُوبىَ له من صَرِيعِ
وأنا ابن الذى حَمَتْ لَحْمَه الدَّبْـــرُ قتيلُ اللَّحْيَان يوم الرَّجيع

وإنما لقب الأحوص لَحوَص كان فى عينيه ، وهو ضيق فى مؤْخرهما . ويقال إنه كان أحمر شديد الحمرة . وهو مثل ابن أبى ربيعة عاش للحب

---

(١) أغانى (دار الكتب) ١/٧١

(٢) انظر فى ترجمة الأحوص وأخباره الأغانى (طبع دار الكتب) ١/٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣٠١ ، ٤/٢٢٤ وما بعدها ، ٦/٢٥٤ وما بعدها ، ٩/٦٤ وما بعدها وابن سلام ص ٥٣٤ والشعر والشعراء ١/٤٩٩ والموشح ص١٨٧ والاشتقاق ص٤٣٧ والخزانة ١/٢٣١ وحديث الأربعاء ١/٣٢٩ وكتابنا الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية ص ١١٤ .

والغزل ، غير أنه فيما يظهر لم يكن ثريًّا ، ومن ثَمَّ كان يرحل كثيراً إلى دمشق يمدح خلفاء بنى أمية وينال عطاياهم الجزيلة ، يقول :

وما كان مالى طارفاً من تجـارةٍ   وما كان ميراثاً من المال مُتْلَدَا
ولكن عطايا من إمامٍ مباركٍ   مَلاَ الأَرض معروفاً وجوداً وسُؤْددا

وله مدائح مختلفة فى الوليد بن عبد الملك وعبد العزيز بن مروان وعمر ابنه ويزيد بن عبد الملك . وأخباره تدل على أنه كان فيه طيش شديد ، ولعله من أجل ذلك كان يصطدم بكثير من معاصريه ، فيهجوهم هجاء قبيحاً . وهو فى غزله شديد الصبابة ، يستأثر الحب بقلبه ويملك عليه كل شىء ، حتى ليقول :

إذا أنت لم تعشق ولم تَدْرِ ما الهوى   فكن حَجَرًا من يابس الصَّخْر جَلْمَدَا

فالحب الحياة ومن لم يعشق عُدَّ من الأموات ، بل من الجماد ، بل من الحجارة أو أشد قسوة . وهو يعلن حبه إعلاناً ، يعلن صبوته وثورة نفسه . وكان فاسد الخلق ، فانصرفت الفتيات والنساء عنه ، إذ رأينه يذهب بعيداً فى التصريح ، على شاكلة قوله :

تعرَّضُ سلماك لما حرمـ   ـتَ ضلَّ ضلالُك من مُحْرِمِ (١)
تريد به البِرَّ يا ليتَـهُ   كفافاً من البِرِّ والمَأْثَمِ (٢)

وأشعاره فى أم جعفر الأوسية أنق غزلياته ، وكانت تدفعه عنها دفعاً شديداً ، وكذلك كان يدفعه عنها أخوها أيمن ، حتى ليُرْوَى أنه أصلاه يوماً سياطاً حامية ، وفيها يقول :

أدورُ ولولا أن أرى أُمَّ جعفرٍ   بأبياتكم ما دُرْتُ حيث أدورُ
أزورُ البيوتَ اللاصقاتِ ببيتها   وقلبى إلى البيت الذى لا أزورُ
وما كنتُ زَوَّاراً ولكن ذا الهوَى   إذا لم يَزُرْ لا بد أن سيزور

---

(١) حرمت : دخلت الحرم مثل أحرمت .
(٢) يقول : ليتنى تعادل إثمى و برى ، فخرجت غير بار ولا آثم .

ويقول :

وما هو إلا أن أراها فجاءةً فأُبْهَت حتى ما أكاد أُجيبُ
لكِ اللهُ إنى واصلٌ ما وصلتِنى ومُثْنٍ بما أوليتِنى ومُثيبُ
أَبثُّك ما ألقى وفى النفس حاجةٌ لها بين جِلْدِى والعظام دَبِيبُ

ومضى ينظم فيها أشعاره ، وهى تزداد كرهاً له وازورارا عنه . ونراه مشغوفاً بجميلة المغنية وناديها المشهور فى المدينة ومن كنّ فيه من الإماء مثل الذَّلْفاء وَعقيلة وسَلاَّمة القس وله فيهن غزل كثير ، كن يغنين فيه ، من مثل قوله فى الذلفاء :

إنما الذلْفاءُ هَمِّى فليدعْنى من يلومُ
حبَّبَ الذَّلفاء عندى منطقٌ منها رَخيمُ
حبُّها فى القلب داءٌ مستكنٌّ لا يَريمُ[1]

وكانت سلامة القس أكثرهن عطفاً عليه وبِرًّا به ، فنظم فيها غزلا كثيراً ، يصوِّر كلفه بها أشد الكلف وتهالكه عليها أشد التهالك على شاكلة قوله :

يا دِينَ قلبك منها لست ذاكرها إلا ترقرق ماءُ العين أو دمعا[2]
لا أستطيع نزوعاً عن محبَّتها أو يصنع الحبُّ بى فوق الذى صَنعا
وزادنى كلفاً فى الحب أنْ منعتْ وحَبُّ شىء إلى الإنسان ما مُنعا

وهو فى هذا الغزل بالإماء والجوارى يختلف عن ابن أبى ربيعة الذى كان لا يتغزل كما مرَّ بنا إلا بالحرائر النبيلات من القرشيات والعربيات . وهو يختلف عنه أيضاً فى بعده فى التصريح ، إذ كان لا يتحرج أحياناً من إباحة ، ومن ثَمَّ شكاه أهل المدينة لأبى بكر بن حزم عامل سليمان بن عبد الملك ، فأقامه على البُلُس للناس . ولما ولى عمر بن عبد العزيز أمر بنفيه إلى دهلك ، فظل بها طوال خلافته ، وولى يزيد بن عبد الملك ، فشفعت له سَلاَّمة — وقد صارت إليه عنده فعفا عنه . ولما رُدَّت إليه حريته زار دمشق ، وتغنَّى بيزيد وانتصاراته على ابن المهلب طويلا . ويقال إنه توفِّى حوالى سنة ١١٠ للهجرة .

---

(١) لا يريم : لا يبرح .
(٢) دين هنا : دان .

العَرْجِىّ (١)

لُقِّبَ هذا اللقب لضيعة له قرب الطائف تسمى العَرْج كان ينزل بها ، وهو عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان ، من أهل مكة . ويقول الرواة إنه كان أشقر جميل الوجه ، وإنه شُهِر بالغزل ونَحا فيه نحو عمر بن أبى ربيعة وتشبّه به فأجاد .

وهو يختلف عنه من وجوه كثيرة ، إذ لم تكن له نباهته فى أهله ، وكان مشغوفاً باللهو والصيد ، وكانت فيه فتوة وفروسية ، حتى عُدَّ فى الفرسان ، ومن ثَمَّ اجتذبته حروب مسلمة بن عبد الملك بأرض الروم ، فأبلى فيها بلاء حسناً ، إذ كان من أفرس الناس وأرماهم وأبْراهم لسَهْم . وهو لا يختلف فى ذلك عن عمر فحسب ، بل هو يختلف معه أيضاً فى أنه كان يسرف فى فتوته ، حتى ليخرج إلى شىء من الإباحية ، على شاكلة قوله :

قالتْ رضيتُ ولكن جئتَ فى قمَرٍ ... هَلاَّ تلبَّثْتَ حتى تَدْخُلَ الظُّلَمُ

وقوله :

باتا بأنعم ليلةٍ حتى بدَا ... صُبْحٌ تلوَّح كالأغرِّ الأشقرِ

فتلازما عند الفراق صَبابةً ... أَخْذَ الغريم بفضل ثوب المُعْسِر (٢)

وهو لا يقف بمثل هذه المعانى عند نفسه ، بل يرمى بها حتى الحواج الناسكات ، يقول فى إحداهن وقد سفرتْ عن وجه جميل :

أماطتْ كساءَ الخزِّ عن حُرِّ وجهها ... وأدنتْ على الخدَّين بُرْدًا مُهَلْهلا

من اللاءِ لم يَحْجُجْنَ يبغينَ حِسْبَةً ... ولكن ليقتلنَ البرىءَ المغفَّلا

ونجده يختلف إلى دار جميلة فى المدينة ، ويبدو منه ما يجعلها تُقْسِم أن لا تدخله منزلها لكثرة عبثه وسفهه ، ويَشْفع له الأحوص عندها ، فتستقبله وتغنيه فى قوله :

---

(١) انظر فى ترجمة العرجى وأخباره الأغانى (طبع دار الكتب) ١/٣٨٣ وما بعدها ، ٨/١٨٤ ، ٢٣٠ ، ٢٧٦ والشعر والشعراء ٢/٥٥٦ والاشتقاق ص ٧٨ وحديث الأربعاء ١/٣١٦ وقد طبع ديوانه فى العراق .

(٢) تلازما : تعانقا . الغريم هنا : الدائن.

obeikandi.com

ألا قاتل الله الهوى كيف أخْلَقا فلم تُلْفه إلا مَشوباً ممذَّقا[1]
وما مِنْ حبيبٍ يستزير حبيبه يعـاتبه فى الودِّ إلا تفرَّقا
لقدسَنَّ هذا الحبَّ من كان قبلنا وقاد الصِّبا المرءَ الكريمَ فأَعْنَقا[2]

وكان يمضى فى التغنى بهذا الغزل لا يخجل ولا يستحيي من الجموح فيه ، إذ كان جريئاً ، بل كان عنيفاً ، وهو عنف نراه فى تتبعه للنساء المتزوجات يتغزل بهن ، كما نراه فى ظلمه لمولى لأبيه قتله وسلط عبيده على امرأته ، وأيضاً فإننا نرى هذا العنف فى هجائه لمحمد بن هشامَ المخزومى ، إذ أخذ يتغزل بزوجه جَبْرة المخزومية وأمه جَيْداء بنت عفيف ليفضحه بمثل قوله :

عوجى علىَّ فسلِّمى جَبْرُ فيمَ الصُّدودُ وأنْتُم سَفْرُ

وقوله :

عوجى علينا ربَّةَ الهَـوْدجِ إنك إن لا تفعلى تحْـرَجى
أيْسَرُ ما نال محبٌّ لدى بَيْن حبيبٍ قولهُ عَرِّجِ
نَقْض إليكم حاجةً أو نقل هلْ لىَ مما بىَ من مخْـرج

فلما ولى محمد إمارة مكة لهشام بن عبد الملك أقامه على البُلُس وحبسه، وظل فى سجنه تسع سنوات إلى أن مات ،وله أشعار كثيرة يأسى فيها على ما صار إليه من عذاب السجن ، يقول فيها بيته المشهور :

أضاعونى وأىَّ فتى أضاعـوا ليـوم كريهةٍ وسِدَاد ثَغْرِ[3]

ومما يستجاد له قوله :

ارْجعْ إلى خُلُقك المعروف دَيْدَنُهُ إن التخلُّقَ يأْتى دونه الخُلُقُ

ويقال إن الوليد بن يزيد اقتصَّ للعرجى من محمد بن هشام المخزومى حين صارت الخلافة إليه ، إذ لم يرْعَ حرمة قرشيته ونسبه فى بنى أمية .

---

(١) أخلق : بلى . ممذقا : مشوباً ومخلوطاً.
(٢) أعنق : سارسيراً منبسطاً ، يريد أن الصبا إذا قاد المرء الكريم انقاد له وجرى فى ميدانه .
(٣) السداد : ما يسد به الخلل . وسداد الثغر : ما يسده من الخيل والشجعان .

٢

شعراء الغزل العُذْرى

الغزل العذرى غزل نقى طاهر ممعن فى النقاء والطهارة ، وقد نُسب إلى بنى عُذرة إحدى قبائل قضاعة التى كانت تنزل فى وادى القُرَى شمالى الحجاز ، لأن شعراءها أكثروا من التغنّى به ونَظْمه ، ويُرْوَى أن سائلا سأل رجلا من هذه القبيلة ممن أنت ؟ قال : من قوم إذا عشقوا ماتوا ، ويروى أيضاً أن سائلا سأل عروة بن حزام العُذْرى صاحب عَفْراء : أصحيح ما يُرْوَى عنكم من أنكم أرق الناس قلوباً ؟ فأجابه : نعم والله لقد تركت ثلاثين شابًّا قد خامرهم الموت وما لهم داء إلا الحب .

ولم تقف موجة الغزل العُذْرى لهذا العصر عند عُذْرة وحدها ، فقد شاع فى بوادى نجد والحجاز ، وخاصة بين بنى عامر ، حتى ليصبح ظاهرة عامة تحتاج إلى تفسير ، ولا شك فى أن تفسيرها يرجع إلى الإسلام الذى طهر النفوس ، وبرّأها من كل إثم . وكانت نفوساً ساذجة لم تعرف الحياة المتحضرة فى مكة والمدينة ولا ما يُطْوَى فيها من لهو وعبث ومن تحلل أحياناً من قوانين الخلق الفاضل على نحو ما مرَّ بنا عند الأحوص والعرجى ، وهى من أجل ذلك لم تعرف الحب الحضرى المترف ولا الحب الذى تدفع إليه الغرائز ، فقد كانت تعصمها بداوتها وتديُّنها بالإسلام الحنيف ومثاليته السامية من مثل هذين اللونين من الحب ، إنما تعرف الحب العفيف السامى الذى يَصْلَى المحب بناره ويستقر بين أحشائه ، حتى ليصبح كأنه محنة أو داء لا يستطيع التخلص منه ولا الانصراف عنه .

وفى كتاب الأغانى من هذا الغزل مادة وفيرة نقرأ فيها لوعة هؤلاء المحبين وظمأهم إلى رؤية معشوقاتهم ظمأ لا يقف عند حد ، ظمأ نحس فيه ضرباً من التصوف ، فالشاعر لا ينى يتغنى بمعشوقته ، متذللا متضرعاً متوسلا ، فهى ملاكه السماوى ، وكأنها فعلا وراء السحب ، وهو لا يزال يناجيها مناجاة شجية ، يصور فيها وَجْده الذى ليس بعده وَجْد وعذابه الذى لا يشبهه

عذاب . وتمضى به الأعوام لا ينساها ، بل يذكرها فى يقظته ويحلم بها فى نومه ، وقد يصبح كهلا أو يصير إلى الشيخوخة ، ولكن حبها يظل شاباً فى قلبه ، لا يؤثر فيه الزمن ولا يرق إليه السلوان ، حتى ليظل يُغْشَى عليه ، بل حتى ليُجَنّ أحياناً جنوناً .

وتقترن بأشعار هذا الغزل أسماء كثيرة ، كما يقترن به قصص غزير ، وهو قصص فيه بساطة وسذاجة حلوة . قصص يصور لنا حياة هؤلاء العشاق العذريين المتبدين ، وقد أحكم الرواة نسجه ، إذ مضوا يلفقون فيه عقدة نفسية ، خَيَّلوا لسامعيهم أنها عقدة حقيقية ، وذلك أنهم زعموا أنه كان من تقاليد العرب أن لا يزوجوا فتياتهم ممن يتغزلون بهن ، لما يجلبن لهن من فضيحة بين العرب . وهو تقليد لم يُعْرَف فى جاهلية ولا إسلام . وقد مضوا يقولون إن السلطان كان يهدر دماء هؤلاء الغزلين ، كأنهم أتوا جناية عظيمة . ولو قَتل السلطان فى الغزل لقتل أمثال الأحوص ، لا هؤلاء المتعففين أصحاب الحب الطاهر الشريف ، وقد حرَّم القرآن الكريم والحديث النبوى قَتْلَ النفس بغير حق . ولا شك فى أن هذا كله قصص لفقه الرواة كى يوجدوا لهذا الغزل عقدة ، بعثت على ما أحسوه عند هؤلاء العشاق من إحساس بالحرمان الشديد . وإذا كان خيال الرواة لعب فى أخبارهم فإنه لعب أيضاً فى أسمائهم ، إذ اخترع من لدنه لبعض هذه الأخبار وما طُوِىَ فيها من أشعار أشخاصاً لعلهم لم يوجدوا أبداً .

وارجع إلى أخبار مجنون بنى عامر وأشعاره التى احتلت فى الجزء الثانى من كتاب الأغانى تسعين صحيفة ونيفاً فستجد الأصمعى يقول : « رجلان ما عُرِفا فى الدنيا قط إلا بالاسم : مجنون بنى عامر وابن القِرِّيَّة وإنما وصفهما الرواة » . ويقول ابن الكلبى : « حُدِّثت أن حديث المجنون وشعره وضعه فَتى من بنى أمية كان يهوى ابنة عم له ، وكان يكره أن يظهر ما بينه وبينها . فوضع حديث المجنون ، وقال الأشعار التى يرويها الناس له ونسبها إليه » .

وقد يكون اسم العاشق من هؤلاء العذريين حقيقياً . غير أن الرواة أضافوا إليه أشعاراً وأخباراً كثيرة . ومن خير من يمثل ذلك قيس بن ذَرِيح . يقول أبو الفرج فى ترجمته لمجنون بنى عامر نقلا عن الجاحظ : « ما ترك الناس شعراً مجهول القائل فى ليلى إلا

نسبوه إلى المجنون ، ولا شعراً هذه سبيله قيل فى لُبْنَى إلا نسبوه إلى قيس بن ذَرِيح » . وقد تُفْصح القصةالمضافة إلى بعض هؤلاء العشاق عن انتحالها وأنها من صنع الرواة وإن لم ينصّ على ذلك القدماء، وخير ما يمثل ذلك قصة[1] وضّاح اليمن التى تذهب إلى أنه عشق أم البنين زوجة الوليد ، وأنها هويته ؛ فكانت تدخله عندها وتخفيه فى صندوق ، وعرّف ذلك زوجها ، فحفر بئراً عميقة ، رماه فيها ، وهيل عليه التراب وسوّيت الأرض .

وعلى هذا النحو تلقانا فى هذا الغزل العذرى أسماء وأخبار خيالية من صنع الرواة ، غير أن وراءها أسماء وأخباراً كثيرة ، لا يرقى إليها الشك . والمهم أن الظاهرة صحيحة ، فقد وُجد هذا الغزل العذرى فى العصر الأموى بنجد وبوادى الحجاز ، وكثُر أصحابه وكثرت أشعاره ، حتى غدت لوناً شعبياً عاماً ، ولعل شعبيتها هى التى أكثرت من القصص حولها ، كما أبهمت بعض من نظموها . وقد اختار الرواة أشخاصاً ، جعلوا منهم أبطالا ونسبوا إليهم كثيراً من تلك الأشعار . وخاصة إذا اتفق أن كان فيها اسم محبوبة هذا البطل ، على نحو ما صنعوا بالأشعار التى وجدوا فيها اسم لُبْنَى ، فإنهم أضافوها — كما لاحظ الجاحظ — إلى قيس ابن ذَرِيح .

ومن الأشخاص الحقيقية فى هذا الغزل عُرْوة بن حزام العُذْرى وصاحبته عَفْراء ، وقد ترجم له صاحب[2] الأغانى وروى له أشعاراً رقيقة من مثل قوله :

وإنى لتَعْرونى لذكراك رِعْدَةٌ ... لها بين جلدى والعظام دَبيبُ
فوالله لا أنساك ما هبَّت الصَّبا ... ومـا أعقبتْها فى الرياح جَنوبُ

ومنهم الصِّمَّة[3] القُشَيْرى ، وكان من فتيان بنى عامر وشجعانهم ، وأحب ابنة عم له تسمى رَيَّا ، وخطبها من أبيها فآثر عليه شاباً موسراً ، فزاد

---

(١) انظرها بترجمته فى الأغانى (طبع دار الكتب) ٦/٢١٨ وما بعدها وراجع أيضاً تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٧/٢٩٥ وحديث الأربعاء ١/٢٩٣ .

(٢) أغانى (ساسى) ٢٠/١٥٢ وانظر الشعر والشعراء ٢/٦٠٤ وذيل الأمالى ص ١٥٧ والخزانة ١/٥٣٣ .

(٣) ترجمته فى الأغانى (طبع دار الكتب) ٦/٢ وما بعدها وانظر قصيدته العينية فى الطرائف الأدبية ص ٧٦ .

شغفه بها ، وأخذ ينظم الأشعار فيها . ثم رأى أن يغزو فى طبرستان لعله ينساها ، فخرج وذكراها لا تفارقه حتى قتل فى غزوة واسمها على شفتيه ، ومن قوله فى عينية له بديعة :

وأذكر أيَّامَ الحِمىَ ثم أنثنى على كَبِدى من خشيةٍ أن تصدَّعا

ومنهم كثيِّر عزَّة ، وقد مضت ترجمته ، وذو الرمة وسنترجم له فى شعراء الطبيعة . ويدخل فيهم جماعة من أتقياء مكة والمدينة ، على رأسهم عبد الرحمن ابن أبى عمَّار الجُشَمِى وعروة بن أذَيْنة وحبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وكان عبد[1] الرحمن من نُسَّاك مكة ، ولقب بالقسّ لنسكه ، وتصادف أن استمع يوماً إلى سلاَّمة ، فشُغف بها ، وشاع ذلك ، فلقبها الناس بلقبه وسموها سلامة القسّ ، وفيها يقول :

سلاَّمُ هل لى منكمُ ناصرُ أم هل لقلبى عنكمُ زاجرُ
قد سمع الناسُ بوَجْدى بكم فمنهم اللائمُ والعاذرُ

وكان عروة[2] من فقهاء المدينة ومحدِّثيها ، ومن الطريف أنه كان يوقِّع شعره ويضع له الألحان بنفسه ، وبذلك نفهم وفرة الموسيقى فى غزله ، فهو ألحان وأنغام على شاكلة قوله :

إن التى زعمتْ فؤادك ملَّها جُعلتْ هواك كما جُعِلْتَ هَوًى لها
فبِك الذى زعمتْ بها وكلاكما يُبْدى لصاحبه الصَّبابةَ كلها
بيضاء باكرها النعيمُ فصاغها بلباقةٍ فأدقَّها وأجلَّها
مَنعتْ تحيَّتها فقلت لصاحبى ما كان أكثرها لنا وأقلَّها

أما ابن[3] عُتْبة فكان أحد الفقهاء السبعة المقدَّمين فى المدينة الذين حُمل عنهم الفقه والحديث ، وكان ضريراً ، كما كان رقيقاً مرهف الإحساس ، وله

---

(١) انظر فى حبه لسلامة الأغانى (طبع دار الكتب) ٨/٣٣٤ وما بعدها .

(٢) راجع فى ترجمته الأغانى (طبعة ساسى) ٢١/١٠٥ والشعر والشعراء ٢/٥٦٠ والموشح ص ٢١١ .

(٣) انظر ترجمته فى الأغانى (طبع دار الكتب) ٩/١٣٩ وما بعدها وصفة الصفوة ٢/٥١ وتهذيب التهذيب ونكت الهميان ١٩٧ .

غزل كثير فى زوجته عَـزَّة بعد طلاقه لها يصور فيها حبه وندمه وألمه من مثل قوله :

لعمرى لئن شطَّتْ بعَزَّةَ دارُها لقد كدتُ من وَشْكِ الفراق أَلِيحُ[1]
أَروح بِهَمٍّ ثم أَغدو بمثلهِ ويُحْسَبُ أنى فى الثياب صحيح

ومن طريف ما يلقانا فى هذا الحب العذرى بكاء المعشوقات لمن حُرموا منهن، وماتوا على حبهن ، ولعل أكثرهن بكاء على معشوقها ليلى[2] الأخْيَلية الخفاجية العامرية ، وكان قد تعلق بها من قومها فتى شاعر شجاع يسمى توْبة ابن الحُمَيِّر ، وشُغف بها شغفاً ، والتاع قلبه ، وهام بها هياماً شديداً ، حتى ليقول :

ولو أنَّ ليلى الأَخْيَلِيَّةَ سَلَّمتْ علىّ ودونى تُرْبَةٌ وصَفائحُ
لسلَّمتُ تسليمَ البشاشةِ أوزَقَا إليها صَدًى من جانب القبر صائح[3]

وظل يلهج باسمها إلى أن قُتل فى بعض الغارات سنة ٨٥ للهجرة فبكته ليلى بقصائد كثيرة تصوِّر ما أوقده فى فؤادها من جذوة الحب ، من مثل قولها :

أيا عَيْنُ بكِّى تَوْبَةَ بن حُمَيِّر بِسَحٍّ كَفَيْض الجَدْوَل المتفجِّرِ
لتَبْكِ عليه من خفاجةَ نِسْوَةٌ بمـاءِ شئون العَبْرَةِ المتحدِّر

وقولها :

وآليتُ لا أنفك أبكيك ما دعتْ على فَنَنٍ وَرْقاءُ أو طار طائرُ
وكل شبابٍ أو جديدٍ إلى بِلىً وكل امرئٍ يوماً إلى الله صائر

---

(١) أليح : أشفق وأجزع .
(٢) انظر فى ليلى الأخيلية وأخبارها مع توبة ترجمتها فى الأغانى (طبع دار الكتب) ١١/٢٠٤ وما بعدها والشعر والشعراء ١/٤١٦ والأمالى للقالى ١/٨٦ وما بعدها .
(٣) زقا : صاح .

ويقال إنها ماتت فى إحدى زياراتها لقبره ، فدفنت إلى جَنْبه . ونقف قليلا عند بطلين من أبطال هذا الحب العذرى ، هما : قيس بن ذَرِيح عاشق لُبْنى وجميل عاشق بثينة .

قيس[1] بن ذَرِيح

من قبيلة كنانة ، كانت عشيرته تسكن فى ضواحى المدينة ، وعُرف بأنه رضيع الحسين بن على ، ولا نعرف شيئاً عن نشأته ، بل تُساق لنا قصة حبه ، كأنها هى كل حياته . وهى قصة محبوكة الأطراف ، إذ يُرْوَى أنه مر فى رحلاته بديار لُبْنى الخزاعية ، فرآها ، ووقعت فى قلبه ووقع فى قلبها . وذهب إلى أبيه ، وكان كثير المال موسراً ، يعرض عليه أن يخطبها له ، فأبَى . وحاول أن يجد عند أمه معونة على أبيه ، فلم يجد عندها ما أراد . فلجأ إلى رضيعه الحسين بن على ، فتوسط له عند أبيه وأبى لُبْنَى ، وأعظما هذه الوساطة ، وتزوج العاشقان ، غير أنهما لم يُرْزقا الولد ، وداخلت أمَّ قيس الغيرة من كلف ابنها بلبنى . ومرض قيس ، فأوعزت إلى أبيه أن يغريه بطلاقها والزواج من أخرى ، رجاء أن يرزقه الله الولد . وأخذ الأبوان يُلِحَّان عليه بعد شفائه من علَّته أن يفارقها وصدع لمشيئتهما . وتولاه جزع شديد ، حتى قَبْلَ أن تبرح دارها إلى دار أبيها ، فقد تصادف أن نَعَق غُراب قبل رحيلها ، فتشاءم تشاؤماً شديداً ، ونظم فى نعيقه أشعاراً كثيرة ، من مثل قوله :

لقد نادى الغرابُ بِبَيْنِ لُبْنَى ... فطـــار القلبُ من حذر الغُرابِ
وقال : غَدًا تباعَدُ دارُ لُبْنَى ... وتنأَى بعد وُدٍّ واقترابِ
فقلت: تعستَ ويحك من غُرَاب ... وكان الدهرَ سعيُك فى تَبَابِ

ورحلت لُبْنَى ، فاضطرمت جذوة الحب فى نفس قيس اضطراماً ، ووجد بلُبْنى وجداً ليس مثله وجد ، ومضى لا ينعم بطعام ولا بشراب ، يذكرها

---

(١) انظر فى قصة قيس الأغانى (طبع دار الكتب) ٩/١٨٠ وما بعدها والشعر والشعراء ٢/٦١٠ وأمالى القالى ٢/٣١٨ وراجع الموشح ص ٢٠٦ وحديث الأربعاء ١/٢٥٦ .

مستيقظاً ويطوف به خيالها نائماً ، ويقول فى غرامه بها الشعر من مثل قوله :

لقد لاقيتُ من كلفى بلُبْنَى ... بلاءً ما أُسيغ به الشرابا
إذا نادى المنادى باسم لُبْنَى ... عَييتُ فما أُطيق له جـــوابا

وقوله :

وإنى لأَهوى النومَ فى غير حِينه ... لعل لقاءً فى المنـــام يكونُ
تحدِّثنى الأَحلامُ أنى أَراكمُ ... فياليت أَحلام المنام يقين

وكانت لبنى تسمع بوجده وشعره ، فلا يهنأ لها عيش ، وتبكى مصيرها ومصيره . ويُرْوَى أن غلاماً أتاها يوماً بأربعة غربان ، فذكرت أشعار قيس فى غراب البَيْن ، وأخذت تنتف ريشها وهى تصيح بأشعار مختلفة من مثل قولها :

ألا يا غُرابَ البَيْن لونُك شاحبٌ ... وأنت بلوعات الفراق جديرُ
فلا زلت مكسوراً عديماً لناصرٍ ... كما ليس لى من ظالِمِىَّ نصير

ولما أضنى الحب قيساً رقَّ له بعض رفاقه ، فواعدوه أن يخرجوا معه إلى ديار لبنى لعله يحظى برؤيتها ، فمضى معهم وهو ينشد :

لقد عذَّبتَنى يا حبَّ ليلى ... فقَـــعْ إما بموتٍ أو حياةِ
فإن الموتَ أَروحُ من حياةٍ ... تدوم على التباعد والشَّتاتِ

ووقعت عينه عليها ، فخر مغشيًّا عليه ، وعادوا به ، وهو لا يكاد يفيق من غشيته . وأشار عليه نفر أن يحجَّ لعله يسلوها ، فحج ورآها هناك ، فعاوده فُتُونه ، وأخذت تسيل عبراته ، وهو يُنْشد فيها أشعاره . ولقيها فعرف أنها ما زالت تحفظ له العهد ، وعاد من الحج يتغنى بحبه ، على شاكلة قوله :

تعلَّق روحى روحَها قبل خَلْقنا ... ومن بعد ما كنا نِطافاً وفى المَهْدِ
فزاد كما زدنا فأَصبح ناميا ... وليس إذا مِتْنا بمُنْصَرِم العَهْدِ
ولكنـــه باقٍ على كل حادث ... وزائرُنا فى ظلمة القبر واللَّحْدِ

وما زال به أبوه يلحُّ عليه أن يتزوج من أخرى ، لعله ينسى صاحبته . وتمضى القصة فتزعم أنه رأى فى بعض أحياء العرب فتاة تسمى لبنى فيها مخايل صاحبته ، فتزوجها ، ولكن حنينه إلى صاحبته الأولى عاوده ، وكأنما لم يكن هناك سبيل إلى إطفاء جذوة هذا الحب . وتزعم القصة أيضاً أن أباها شكاه إلى معاوية فأهدر دمه إن تعرَّض لها ، وأرسلت إلى حبيبها بالخبر مشفقة عليه ، ويروون أنها تزوجت من غيره ، عله ينساها ، ولكن أنَّى له ؟ لقد أمضه الغرام ، ومضى إلى ديار قومها فوجدها قد رحلت مع زوجها ، فوضع خده على التراب ، وبكى أحرَّ بكاء منشداً :

وإن تك لُبْنَى قد أتى دون قربها ... حجابٌ منيعٌ ما إليه سبيلُ
فإن نسيمَ الجوِّ يجمع بيننا ... ونُبْصر قَرْن الشمس حين تزول
وأرواحنا بالليل فى الحَيِّ تلتقى ... ونعلم أنا بالنهـــار نَقِيل[1]
وتجمعنا الأرضُ القَرارُ وفـــوقنا ... سماءٌ نرى فيها النجومَ تجـــول

واشتدت به المحنة ، واشتد به الوجد والهيام ، والحياة من حوله وحول معشوقته تمعن فى القسوة ، وهو لا يزال ينشد فيها الأشعار من مثل قوله :

إلى الله أشكو ما ألاقى من الهوى ... ومن حُرَقٍ تعتادنى وزفيرِ
ومن ألمٍ للحب فى باطن الحشَا ... وليلٍ طـــويل الحزن غير قصيرِ

وقوله :

وبين الحشَا والنَّحْر منى حرارةٌ ... ولوعةُ وَجْـــدٍ تترك القلَب ساهيا
تمرُّ الليالى والشهور ولا أرى ... ولوعى بهـــا يزداد إلا تماديا

وقوله :

ألا ليت أياماً مَضَيْن تعـــودُ ... فإن عُدْن يوماً إننى لسعيدُ

---

(١) نقيل : من القيلولة وهى نصف النهار .

وظل قيس على هذا النحو يشكو حبه وندمه على فراق صاحبته ، حتى رأى رضيعه الحسين بن على ونفر من قريش تعمّقهم التأثر له أن يكلموا زوج لبنى فى شأنه لعله يردها عليه . وصدع لمشيئتهم راضياً ، فعادت لبنى إلى قرة عينها وظلت عنده حتى ماتت ، فأكبَّ على القبر يبكيها ، ولم يزل عليلا إلى أن لحق بها ، فدفن إلى جنْبها .

جميل[1] بن مَعْمَر

لعل حياة جميل أوضح حياةٍ بين الشعراء العذريين ، فقد نشأ فى منازل عُذْرة بوادى القُرَى ، وأخذ يختلف إلى المدينة ، وربما إلى مكة ، فقد كان يلقى ابن أبى ربيعة كثيراً ويتناشدان الشعر ، ويقال إنه حدا يوماً بمروان بن الحكم . ويظهر أنه كان يتصل ببنى أمية كثيراً ، فى أخباره أنه رحل إلى عبد العزيز بن مروان بمصر ولقيه لقاء كريماً .

وكان كثيِّر عَزَّة راوية له . وشعره لذلك أوثق شعر العذريين ، وفى أخباره أنه تلقن الشعر عن هُدْبة بن الخَشْرم تلميذ الحطيئة ، ونعرف أن الحطيئة تلميذ زهير ، وكأنه يمتُّ بأسباب قوية إلى هذه المدرسة التى كانت تُعْنَى بصقل الشعر وتجويده . ونجد له أخباراً أخرى تتصل بتهاجيه مع بعض الشعراء الحجازيين مثل الحَزين الكنانى .

نحن إذن أمام شاعر واضح الشخصية ، عُنى الرواة والناس بأشعاره ، كما عنى بها مغنو المدينة ومكة ، وهى أشعار يمضى جمهورها فى التغنى ببثينة معشوقته ، إحدى نساء قبيلته ، تحابَّا صغيرين ، ولم تلبث أن ألهمته الشعر ؛ إذ أحبها حبًّا انتهى به إلى الهُيام بها ، وعرفت ذلك فنحته حبها وعطفها ، وأخذت تلتقى به حين شبَّا فى غفلات من قومهما ، وخشى أهلها مغبة هذا اللقاء ، فضيَّقوا عليها الخناق ، على الرغم مما عرفوا من أن الحب بينها وبين جميل حب نقى برىء ،

---

(١) انظر فى جميل وأخباره وأشعاره الأغانى (طبع دار الكتب) ٨/٩٠ وما بعدها وابن سلام ص ٤٦١ ، ٥٤٣ والشعر والشعراء ١/٤٠٠ وما بعدها والخزانة ١/١٩٠ والموشح ص ١٩٨ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٣/٣٩٥ وحديث الأربعاء ١/٢٤٩ ، ٢٨٧ .. وطبع ديوانه بشير يموت فى بيروت ونشره حسين نصار بالقاهرة وانظر فى بعض قصائده الأمالى ٢/٨٧ ، ٣٠٣ .

وأخذت الألسنة فى الحى لا تكفُّ عن التعريض بالمتحابين ؛ فهجرته ، واحتجبت من دونه راغمة ، وهو على ذلك لا يسلوها ، يقولُ :

وإنى لأرضى من بُثَيْنَةَ بالذى ... لو أبصره الواشى لقرَّت بَلابلُه[1]
بلا وبأن لا أستطيعَ وبالمُنى ... وبالأمل المرجوِّ قد خاب آملُهْ
وبالنظرة العَجْلى وبالحَوْل تنقضى ... أواخرُهُ لا نلتقى وأوائله

وكانت تلتمس فرصة من أهلها أحياناً فتلقاه ، فتُشْرق الدنيا فى عينه ، ويسعد سعادة لا حد لها . وخطبها من أبيها فردَّه ، لكراهة العرب أن يزوِّجوا فتياتهم ممن يتغزلون بهم ، هكذا تزعم القصة ! . ويزوجها أبوها من فتى فى القبيلة يسمى نُبَيْهاً ، فتسودُ الدنيا فى عين جميل ، ويلتاع لوعة شديدة ، ويصبح حبها كل حياته ، فهو يملك عليه كل شىء ، ويأخذ عليه كل طريق ، يقول :

ولو تركتْ عقلى معى ما طلبتُها ... ولكنْ طِلابيها لما فات من عقلى
خليلىَّ فيما عشتما هل رأيتما ... قتيلا بكى من حبِّ قاتله قبلى
فلا تقتلينى يا بُثَيْنُ فلم أُصب ... من الأمر ما فيه يحلُّ لكم قتلى

ويقول :

لها فى سَواد القلب بالحب مَيْعَةٌ ... هى الموتُ أو كادتْ على الموت تُشْرفُ[2]
وما ذكرتْكِ النَّفْسُ يا بَثْنَ مرَّةً ... من الدهر إلا كادت النفسُ تَتْلَفُ
وإلا اعترتنى زفرةٌ واستكانةٌ ... وجاد لها سَجْلٌ من الدمع يَذْرِفُ[3]
وما استطرفتْ نفسى حديثاً لخلَّةٍ ... أُسَرُّ به إلا حديثُكِ أطْرفُ

ويمضى يشكو حبه ، ويحاول أن يلقاها ، وتُنيله فى بعض الأحايين أمنيته فيثور به أهلها ويتوعدونه . ويعنف به حبها ، ويشقى به . ويرحل إلى

---

(١) البلابل : الوساوس . قرت : سكنت .
(٢) يقصد بالميعة حرارة الحب وقوته .
(٣) السجل : الدلو العظيمة مملوءة ماء .

المدينة وغير المدينة يتغنى باسمها وحبها متحملا من الجهد فى عشقها ما يطيق وما لا يطيق ، وتمضى الأعوام وصبوته إليها تزداد به حدة وعنفاً ، وذكراها لا تبرح مخيلته : بل تعيش فى قلبه كأنها دينه ، وهو يرتل غزله كأنه صلوات يُودِعها عبادته على شاكلة قوله :

ألا ليت شعرى هل أبيتنَّ ليلةً ... بوادى القُرَى إنى إذن لسعيدُ
وهل ألقيَنْ فَرْدًا بثينةَ مرة ... تجود لنا من ودِّها ونجـــود
علقتُ الهوى منها وليدًا فلم يزل ... إلى اليوم يَنْمِى حبُّها ويزيد
وأفنيتُ عمرى فى انتظار نوالها ... وأبليتُ فيها الدهرَ وهو جديد
إذا قلتُ ما بى يابثينةُ قاتلى ... من الحبِّ قالتْ ثابتٌ ويزيد
وإن قلت رُدِّى بعضَ عقلى أَعِشْ به ... مع الناس قالت ذاك منك بعيد
فلا أَنا مردودٌ بما جئتُ طالباً ... ولا حبُّها فيما يَبيد يَبيدُ
يموتُ الهوى منِّى إذا ما لقيتُها ... ويَحْيَا إذا فارقتها فيعود

وشعرُ جميل كله فى بثينة على هذا النحو يمتاز بصدق اللهجة وحرارة العاطفة . وقد ظلت بثينة تحفظ له حبه ، إلى أن وافاه القدر بمصر فى ولاية عبد العزيز بن مروان عليها ، فبكته ، ويقول الرواة إنها ظلت تبكيه إلى أن لحقت به .

٣

شعراء الزهد

تتردَّد فى القرآن الكريم دائماً الدعوة إلى الزهد فى الحياة الدنيا ومتاعها الزائل ، وهى دعوة تحمل فى تضاعيفها الحثَّ على التقوى والعمل الصالح ، فالمسلم الحق من عاش للآخرة ، ورفض عرض الدنيا ، فلم يأخذ منه إلا بحظ محدود ، حظ يقيم أودَه ، ويعدُّه للكفاح فى سبيل الله ، ومن ثَمَّ كان زهد

الإسلام لا يعنى الانقطاع تماماً عن الدنيا كزهد الرهبانية ، بل هو زهد معتدل ؛ زهد فيه قوة ودعوة إلى العمل والكسب ، يقول جلّ وعز : (وابْتَغِ فيما آتاك الله الدارَ الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا) وهو نصيب ينبغى أن لا يصْرف المسلم عن الآخرة ونعيمها الخالد . .

وزاهد الأمة الأول محمد صلى الله عليه وسلم ، ويُرْوَى أن رجلا جاءه فقال : يا رسول الله دُلَّنى على عمل إذا عملته أحبَّنى الله وأحبنى الناس ، فقال : « ازْهَدْ فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس[1] » . وقد اندفع وراءه كثير من الصحابة يحيون حياة زاهدة متقشفة ، وعلى رأسهم أهل الصُّفَّة ، وهم نفر من فقراء المسلمين اتخذوا صُفَّة[2] المسجد منزلا لهم ، وعاشوا على صدقات الرسول والمثرين يعبدون الله حق عبادته مرتلين آىَ الذكر الحكيم . وكان وراءهم كثيرون أخلصوا أنفسهم لتقوى الله حق تقواه ، وعلى رأسهم أبو بكر وعلى وعمر وعبد الله ابن عمر وأبو الدرداء وأبو ذرّ ، وعبد الله بن عمرو بن العاص وكان يقطع النهار صائماً والليل قائماً يصلى لربه . وفى ابن سعد وغيره صور كثيرة من هذه المجاهدات والرياضات للنفس[3] .

وجاء عصر الفتوح وجاءت معه الغنائم الوفيرة ، فاقتنى العرب الضِّياع وشيدوا القصور ، وهم فى ذلك لا ينسون تعاليم الإسلام ، بل إننا نجد بينهم فى كل مصر كثيرين يعيشون للحياة التقية الصالحة ، وسرعان ما تكونت فى كل بلد أقاموا فيه جماعات القرَّاء الأتقياء ، بالإضافة إلى من كان منهم يعيش فى مكة والمدينة ، وأخذ كثير منهم يعيش حياته للنُّسك والعبادة . وأكبر إقليم نلتقى فيه بهؤلاء النُّسَّاك والقراء إقليم العراق ، وربما كان لكثرة الحروب فيه أثر فى ذلك ، وكأن قوماً انصرفوا عن الفتن ، خشية على أنفسهم من التورط فى الإثم ، إلى النسك والعبادة ، كما انصرف إلى ذلك كثيرون ممن لم يستطيعوا الانتصار على الأمويين ، فتركوهم ودنياهم ، ومضوا يتعبَّدون . وكان الخوارج فى

---

(١) انظر فى هذا الحديث رقم ٣١ فى الأربعين النووية والبيان والتبيين ٣ / ١٦٦ .

(٢) الصفة : موضع مظلل من المسجد .

(٣) انظر فى ذلك كتابنا التطور والتجديد فى الشعر الأموى ص ٦٠ وما بعدها .

جملتهم جماعة كبيرة من الأتقياء ، ضلّتْ فى اجتهادها وما زعمته من كفر الأمويين وجمهور المسلمين ، ولكنها لم تضل يوماً فى تقواها .

لذلك كله عمّت فى العراق موجة واسعة من التقوى والزهد فى الدنيا ونعيمها المادى زهداً كثيراً ما تطرّفوا فيه ، إذ أخذت تدخل فى ثنايا هذا الزهد تأثيرات مسيحية وغير مسيحية ، بحكم ما دخل فى الإسلام من الموالى والشعوب الأجنبية . على أن المصدر الأساسى لهذا الزهد كان الإسلام نفسه وما دعا إليه من رفض الدنيا والابتهال إلى الله وانتظار ما عنده من النعيم الحق . وسرعان ما وجدنا طائفة كبيرة من الوعاظ ، تعيش حياتها تعظ الناس وتدعوهم إلى أن يجعلوا العبادة والنسك قرة أعينهم ، وهى لذلك ماتنى تحدثهم — مستلهمة القرآن الكريم — عن قدرة الله فى خلقه السموات والأرض ، وعن الموت وما ينتظرهم من الحساب يوم القيامة . والحسن البصرى أشهر هؤلاء الوعاظ وهو فى وعظه دائماً يذكر الموت ، ويذكر النار حتى لكأنه يشاهدها بين عينيه ، ويحض حضّاً قوياً على الزهد فى الدنيا وحُطامها . وكان هو وغيره من الوعاظ لا يزالون يستشهدون فى وعظهم بأشعار لَبيد والنابغة الجَعْدى وغيرهما تلك التى تدعو إلى خشية الله وتقواه ، بل ربما استشهدوا بأبيات لبعض الجاهليين ، وخاصة تلك التى تصور فناء الدول أو تدعو إلى خلق فاضل .

وطبيعى أن تترك مواعظهم أثراً عميقاً فى نفوس الشعراء الذين كانوا يختلفون إلى مجالسهم ، وقد مرّ بنا فى غير هذا الموضع مدى تأثير الإسلام ومثاليته الروحية فى الشعراء ، كما مرت بنا فى مواضع مختلفة من هذا الكتاب أشعار زاهدة لنفر منهم . ولعل من الطريف أننا نجد بعض الرجاز مثل أبى النجم العجلى والعَجّاج يبدءون أراجيزهم بالحمد لله والثناء عليه ، وكثيراً ما تتحول الأرجوزة عند ثانيهما إلى موعظة خالصة . وتلقانا عند بعض الشعراء أدعية وابتهالات لله من مثل قول ذى الرمة يناجى ربه قبل موته[1] :

يارَبِّ قد أَشرفتْ نفسى وقد علمتْ ... علماً يقيناً لقد أَحصيتَ آثارى

يامخرجَ الروح من جسمى إذا احتضرتْ ... وفارجَ الكَرْبِ زحزحْنى عن النار

---

(١) ديوان ذى الرمة (طبعة كمبريدج) ص ٦٦٧ .

ونريد الآن أن نقف عند نفر منهم تمثلوا فى أشعارهم فكرة رفض الحياة داعين للتفرغ إلى العبادات وإلى الأخلاق الرفيعة التى يدعو إليها الإسلام. وأول من نقف عنده عروة بن أُذَيْنَة فقيه المدينة الذى رُوِيت له — كما أسلفنا — مقطوعات فى الغزل العفيف، وله أبيات تصور مبدأ مهما شاع بين الزهاد فى هذا العصر، وهو مبدأ التوكل على الله والثقة فى أنه لا يترك أحداً بدون رزق يكفيه، وبلغ من مبالغة بعضهم فى هذا المبدأ أن رأوا فى السعى والكد نقصاً فى التوكل والثقة بربهم. ولا شك فى أن هذا المبدأ يفضى إلى طمأنينة نفسية قوية، كما يفضى إلى طرح الدنيا طرحاً تامًّا، وفى تقريره يقول عروة :

لقد علمتُ وما الإسرافُ من خلقى ... أن الذى هو رزقى سوف يَأْتينى
أَسْعَى له فيعنِّينى تَطَلُّبُـهُ ... ولو قعدتُ أتانى لا يُعَنِّينى
خِيمى كريمٌ ونفسى لا تحدِّثنى ... إن الإلٰه بلا رزقٍ يخلِّينى

وممن اشتهروا بكثرة أشعارهم فى الزهد عبد الله بن عبد الأعلى، ويظهر أنه كان يستمد فى زهده من منابع بعيدة عن الإسلام، إذ نرى من كتبوا عنه يتهمونه فى دينه، ويقولون إنه كان سيئ العقيدة[1]، وهو فى أشعاره يقف كثيراً عند فكرة الفناء من مثل قوله :

يا وَيْحَ هذى الأرض ما تصنع ... أكلَّ حَىٍّ فوقها تَصْرَعُ
تَزْرعهم حتى إذا ما أتوا ... عـادتْ لهم تَحْصد ما تزرع

وقوله :

مَنْ كان حين تُصيب الشمسُ جَبْهته ... أو الغبارُ يخاف الشَّيْنَ والشَّعَثا
ويألفُ الظِّلَّ كى تَبْقَى بَشاشتُه ... فسوف يسكن يومًا راغِمًا جَدَثا[2]

وفى تضاعيف هذا الشعر الزاهد تلقانا دعوة إلى مكارم الأخلاق يستضىء أصحابها بما جاء فى الذكر الحكيم من مثالية خلقية نبيلة، وأكثر من لهجوا بهذه

(١) لسان الميزان ٣ / ٣٠٥ والمبرد ص ٢٩٤ وما بعدها وانظر أمالى القالى ٢ / ٣٢٣.
(٢) الجدث : القبر.

الدعوة مسكين[1] الدارمى القائل :

وسُمِّيتُ مِسْكيناً وكانتْ لجاجةً ... وإنى لمسكين إلى الله راغبُ

ويقول صاحب الخزانة إن له قصيدة ، ذكر فيها طائفة من الشعراء ، ناسباً قبر كل منهم إلى بلده ومسقط رأسه ، متخذاً من ذلك العبرة ، ومصغراً أمر الدنيا ومهوناً من شأنها ، وقد ذكر له منها عشرة أبيات . ومما يتردد فى كتب الأدب من شعره قوله يعلن رضاه بالقضاء وما قُدِّر له ، وأن الله لا بد أن يكشف غمته :

ما أنزل الله من أمرٍ فأكرهه ... إلا سيجعل لى من بعده فرجا

ومن مستحسن شعره قوله :

ولستُ إذا ما سرَّنى الدهر ضاحكًا ... ولا خاشعًا ما عشتُ من حادث الدَّهْرِ

أَعِفُّ لدى عُسْرى وأُبْدى تجمُّلاً ... ولا خير فيمن لا يعفُّ لدى العُسْرِ

وإنى لأستحيي إذا كنت مُعْسرًا ... صديقى وإخوانى بأن يعلموا فَقْرى

ومن يفتقرْ يعلمْ مكان صديقهِ ... ومن يَغْنَ لا يَعْدَم بلاءً من الدَّهَرِ

وهو القائل :

أخاك أخاك إن من لا أخاً له ... كساعٍ إلى الهَيْجا بغير سلاحِ

وله أشعار طريفة فى الغيرة[2] وأن على الزوج أن لا يبالغ فى اتهام زوجته ، حتى لا يغريها بما يخاف منه . على أننا نلاحظ عنده أنه كان يستشعر عصبيته القبلية فى فخره بخصاله ؛ وقد مرَّ بنا موقفه من تولية معاوية لابنه يزيد ، وما نظمه فى ذلك من شعر . وهو فى الحق لم يكن زاهداً بالمعنى الدقيق لكلمة زاهد ، إنما كان متأثراً تأثراً عميقاً بالروح الإسلامية ، ومن ثم استلهمها فى إشادته بشيمه ، ونحن نتركه إلى أبى الأسود الدؤلى وسابق البربرى .

---

(١) انظر فى ترجمته الأغانى (ساسى) ١٨/٦٨ والشعر والشعراء ١/٥٢٩ ، والخزانة ٢/١١٦ ومعجم الأدباء ١١/١٢٦ وأمالى المرتضى ١/٤٧٢ وابن عساكر ٥/٣٠٠ .

(٢) أمالى المرتضى ١/٤٧٥ وما بعدها .

أبو الأسود الدُّؤَلى [١]

اسمه ظالم بن عمرو من بنى كنانة ، ولى قضاء البصرة فى ولاية عبد الله ابن عباس عليها لعلى بن أبى طالب ، ولما خرج على إلى العراق لزمه فى حروبه ، ودخل بعد وفاته فيما دخل فيه الناس من بيعة معاوية ، ولكنه ظل يعلن تشيعه لآل البيت . وهو أول من وضع النقط فى المصاحف لتصوير حركات الإعراب . وهو يُعَدّ من وجوه التابعين وفقهائهم ومحدّثيهم . وله مدائح وأهاج فى معاصريه وأشعار فى أزواجه ، ويقال إنه كان بخيلا شحيحاً ، وهو مع ذلك كان تقيًّا صالحاً ، وله أشعار كثيرة فى الزهد من مثل قوله :

وإذا طلبتَ من الحوائج حاجةً ... فادْعُ الإلٰه وأحسنِ الأعمالا
فليعطينَّك ما أراد بقُدْرةٍ ... فهو اللطيف لما أراد فعالا
ودَع العبادَ ولا تكن بطلابهم ... لَهِجاً تضعضَعُ للعباد سؤالا[٢]
إن العباد وشأنَهم وأمورَهم ... بيد الإله يقلِّب الأحوالا

وهو فى زهده لا يدعو إلى الخمول بل يدعو إلى السعى فى الدنيا والمشى فى مناكبها ، حتى يكسب المرء لنفسه ما يحيا به حياة كريمة ، يقول لابنه :

وما طلبُ المعيشة بالتمنى ... ولكن أَلْقِ دَلْوَك فى الدِّلاءِ
تَجِئْك بملئها يومًا ويومًا ... تجئك بِحَمْأةٍ وقليلِ ماءِ[٣]
ولا تقعد على كسلٍ تَمَنَّى ... تُحيل على المقادرِ والقضاءِ

---

(١) انظر فى ترجمته الأغانى (طبع دار الكتب) ١٢/٢٩٧ والشعر والشعراء ٢/٧٠٧ وأخبار النحويين البصريين ص ١٣ وطبقات ابن سعد ج٧ ق١ ص٧٠ وأسد الغابة ٣/٦٩ والإصابة ٣/٣٠٤ والخزانة ١/١٣٦ وروضات الجنات ص ٣٤١ وطبقات القراء لابن الجزرى ١/٣٤٥ ومعجم الأدباء ١٢/٣٤ وإنباه الرواة على أنباه النحاة ١/١٣ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٧/١٠٤ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٦٧ . وله ديوان نشره عبد الكريم الدجيلى ببغداد .

(٢) تضعضع : تذل وتخضع .

(٣) الحمأة : الطين الأسود .

وكثيراً ما يتحدث عما ينبغى من الربط بين العلم الدينى والعمل ، فالعلم إن لم يُقْرَنْ بالعمل لم يكن علماً، بل كان لهواً وعبثاً ، بل كان خيانة للعهد ونقضاً ، يقول :

وما عالمٌ لا يقتدى بكلامه ... بموفٍ بميثاقٍ عليه ولا عَهْدِ

ونراه ساخطاً سخطاً شديداً على من يتعلقون بالدنيا محيطين أنفسهم بمظاهر الثراء متناسين الشريعة الغراء ، على شاكلة قوله :

قد يجمع المرءُ مالا ثم يُحْرَمُهُ ... عمَّا قليلٍ فيلقى الذُّلَّ والحَربا[1]
وجامعُ العلم مغبوطٌ به أبدًا ... ولا يحاذرُ منه الفَوْتَ والسَّلبا

وتوفى أبو الأسود سنة ٦٩ للهجرة ، وقيل بل سنة تسع وتسعين ، والقول الأول هو الصحيح .

سابق[2] البربرى

ليس بين أيدينا أخبار كثيرة عن سابق ، وكل ما نعرف عنه أنه كان قاضى الرَّقة بالموصل وإمام مسجدها وأنه كان يفد على عمر بن عبد العزيز يعظه . فهو من وعاظ العصر ، وشعره يفيض تقوى وورعاً ودعوة إلى التقشف والفرار إلى الله من الدنيا ومتاعها الزائل ، ونراه يثور على الأغنياء الذين يعيشون لجمع المال ثورة عنيفة ، يقول :

فحتى متى تلهو بمنزل باطلٍ ... كأنك فيه ثابتُ الأصل قاطِنُ
وتجمعُ ما لاتأكل الدهرَ دائبًا ... كأنك فى الدنيا لغيرك خازنُ

ويقول :

أموالُنا لذوى الميراث نجمعها ... ودورنا لخراب الدهر نَبْنيها
والنفس تَكْلَفُ بالدنيا وقد علمتْ ... أن السلامةَ منها ترْكُ ما فيها

---

(١) الحرب : سلب المال .

(٢) انظر فى سابق تاريخ ابن عساكر ٦/٣٨ والخزانة ٤/١٦٤ والبيان والتبيين ١/٢٠٦ والمبرد ص ٢٥٣ .

وكان لا يزال يكثر من حديث الموت ، وأنه نازل عما قريب ، فينبغى لكل إنسان أن يعدّ العُدّة للرحيل، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من عمل عملا صالحاً ، ومن قوله فى ذلك :

إذا الجسدُ المعمور زايلَ روحَه ... خَوَى وجمالُ البيتِ يانفسُ آهِلُهْ
وقد كان فيه الروح حيناً يَزينُه ... وما الغِمْدُ لولا نَصْلُه وحمائله
إذا الأرض خَفَّتْ بعدثِقْلٍ جبالُها ... وخَلَّى سبيلَ البحريا نفس ساحلُهْ
فلا يرتجى عَوْناً على حَمْلِ وِزْرِهِ ... مُسِيءٌ وأولى الناس بالوِزْرِ حاملُه

ونراه يدعو إلى الرضا بقضاء الله، فلا مَعْدى عنه، ولا منصرف إلا إليه ، وأولى بنا أن نصبر وأن لا نجزع ، وهو يردد ذلك فى أشعاره على شاكلة قوله :

وإن جاء مالا تستطيعان دفْعَه ... فلا تَجْزعا مما قضى الله واصْبرَا

ويظهر أنه كان شاعراً مكثراً ، يدل على ذلك قول الجاحظ واصفاً زهدياته : « لو أن شعر سابق البربرى كان مفرقاً فى أشعار كثيرة لصارت تلك الأشعار أرفع مما هى عليه بطبقات . . ولكن القصيدة إذا كانت كلها أمثالا لم تسر . ومتى لم يخرج السامع من شىء إلى شىء لم يكن لذلك عنده موقع » .

٤

شعراء اللهو والمجون

رأينا فى غير هذا الموضع كيف تحضر العرب فى هذا العصر . وكيف أن كثيرين منهم أترفوا ترفاً شديداً ، إذ أحاطوا أنفسهم بكل مظاهر النعيم من قصور باذخة ومطاعم وملابس أنيقة ، وجوار ورقيق . ودائماً حين تغرق الأمم فى الترف يتورط كثير من أبنائها فى آثام مختلفة من اللهو والمجون . وإذا كنا لاحظنا فيما أسلفنا انتشار موجة من الزهد فى العصر كان لها آثار عميقة فى

الشعر والشعراء فإن هذه الموجة انحسرت عن كثير من الأفراد إذ الناس ليسوا سواسية ، منهم من يجد فى الدين ومثاليته الروحية متاعه ، ومنهم من ينحرف عن الدين إلى حياة ماجنة يتهالك فيها على اللهو والخمر .

ومعروف أن الإسلام حرَّم الخمر ، وأن عمر شدَّد فى عقابها حين وجد بعض المسلمين يقترفونها من مثل أبى محْجن الثقفى ، وقصة صلاة الوليد بن عقبة والى الكوفة لعثمان بالناس وهو سكران مشهورة . غير أن أمثاله وأمثال أبى محجن فى عصر الخلفاء الراشدين كانوا قليلين . ونحن لا نمضى فى عصر بنى أمية ، حتى تظهر آثار الفتوح وما حملتْ من أموال وحضارات وصورٍ من الترف إلى العرب . فتحضرت مكة والمدينة ، بل أتْرفتا ، وتحضر العرب الذين خرجوا فى الفتوح واستقروا فى البيئات الجديدة ، وأخذ كثير منهم يندفع فى الاستمتاع بالحياة ، وبالغ نفر فى هذا الاستمتاع ، متحرراً من قوانين الدين . وكلما تقدمنا فى العصر ازداد ذلك قوة وحدة ، وخاصة فى البيئات البعيدة التى رحل إليها العرب ، وظهروا على ما فيها من خمور ، وأقصد بيئة خراسان ، حيث كانت تزخر بالخمر وبالطبول والمزامير ، وقد مرَّ بنا كيف أن والياً عليها — هو قتيبة بن مسلم — اضطُرَّ حين وجد تفشى الخمر فى جنده أن يعاقب على احتسائها بالقتل .

والحق أنها كانت تنتشر فى كل البيئات ، وقلما نجدها فى مكة والمدينة حيث كانت تنتشر دور الغناء . ومن الشعراء الذين سهلوا من كئوسها فى هذه البيئة العهد معاوية ابن أرْطاة[1] . وعبثا حاول مروان بن الحكم والى المدينة أن يردَّه عنها ، وفيها يقول :

إنا لنَشْرَبُها حتى تَمِيل بنا كما تمايلَ وَسْنَانٌ بوَسْنانِ

ومنهم عبد الرحمن بن الحكم[2] الذى كان يهاجى عبد الرحمن بن حسان ، وفيها يقول :

---

(١) راجع فى ابن أرطاة الأغانى (طبع دار الكتب) ٢ / ٢٤٢ وما بعدها .

(٢) انظر فى ترجمته أغانى (دار الكتب) ١٣ / ٢٥٩ وراجع المبرد ص ٥٢ والبيان والتبيين ٣ / ٣٤٨ .

ترى شارِبَيْها حين يَعْتورانها يَميلان أحيانًا ويعتدلان

وممن كانوا يحتسونها فى هذه البيئة لأواخر العصر ابن ميّادة[١] مادح الوليد ابن يزيد بن عبد الملك ونديمه ، وهو من مخضرمى الدولتين ، وفيها يقول :

ومعتّقٍ حُرِم الوَقودَ كرامــةً كدم الذَّبيح تمجُّه أَوْدَاجُهُ[٢]
ضمنَ الكرومُ له أَوائلَ حَمْلِهِ وعلى الدِّنان تمامُه ونِتاجه[٣]

ومثله ابن هَرْمة[٤] ، وكان مشغوفاً بها كلفاً ، وهو القائل :

أسأل الله سكرةً قبل مَوْتى وصياحَ الصِّبْيان يا سَكْرانُ

وإذا تركنا الحجاز إلى العراق وجدنا كثيرين يقبلون على الخمر فى غير حياء ولا استخفاء ، وكأنما كانت الفتن هناك وما حمّلتهم من الخطوب باعثاً لهم على المجون ، حتى ينسوا به عناءهم ، ومن ثم مضى نفر منهم يعلنْ معاقرته لها ، وأنه لن ينصرف عنها ، على شاكلة سُحَيم[٥] بن وثيل الرياحى التميمى ، وكان فيه غير قليل من بقايا الجاهلية ، وأكبر الدلالة على ذلك معاقرته لغالب أبى الفرزدق التى مرت بنا ، والتى مضى فيها ينافسه فى نحر إبله لقومه ، ويظهر أنه كان يكثر من الشراب كثرة جعلت امرأته حَدْراء تراجعه وتكثر من مراجعته ، فقال :

تقول حَدْراء ليس فيك سوى الـ خَمْر معيبٌ يعيبُــه أَحَــدُ
فقلت: أخطأْتِ بل مُعاقرتى الـ ـــخَمْرَ وبَذْلى فيها الذى أَجِــدُ

---

(١) انظر فى ترجمته أغانى (دار الكتب) ٢٦١/٢ والشعر والشعراء ٧٤٧/٢ والخزانة ٧٦/١ والبيان والتبيين ٣٤٣/٢.

(٢) المعتق : الشراب القديم. حرم الوقود : لم يطبخ بالنار . الأوداج : جمع ودج وهو عرق فى العنق .

(٣) تمامه : يقصد تمام مدة حمله .

(٤) راجع فى ترجمته أغانى (دار الكتب) ٣٦٧/٤ والشعر والشعراء ٧٢٩/٢ والخزانة ٢٠٣/١ والموشح ص ٢٢٣ .

(٥) انظر فى ترجمته ابن سلام ص ٤٨٩ والإصابة ١٦٤/٣ والخزانة ١٢٣/١ والشعر والشعراء ٦٢٦/٢ .

هو الثناءُ الذى سمعتِ بهِ لا سَبَدٌ مُخْلدى ولا لَبَدُ[١]
ويحكِ لولا الخمورُ لم أَحْفِلِ الـ ـعيشَ ولا أن يَضُمَّنى لَحَدُ[٢]
هى الحَيا والحياةُ واللَّهو لا أنتِ ولا ثروةٌ ولا وَلَـدُ

ويقف السرادق الذُّهْلى هذا الموقف نفسه من ابنته ، فيعلن أنه لن يكف عنها ، إذ صارت له غذاء لا يستطيع الصبر عنه[٣]. ويلقانا فى عهد زياد بن أبيه حارثة[٤] بن بدر أحد عماله وخلصائه ومُدَّاحه ، كلفاً بها كلفاً شديداً ، وله فيها أشعار كثيرة رواها أبو الفرج فى ترجمته يجاهر فيها بأنه لن يكفَّ عنها ، مهما أكثر لائموه ، على شاكلة قوله :

يعيبُ علىّ الرَّاحَ من لو يذوقها لجُنَّ بها حتى يغيَّب فى القَبْرِ
علامَ تذمُّ الراحَ والراحُ كاسمها تُريح الفتى من هَمِّه آخرَ الدهر
فَلُمْنى فإنَّ اللوم فيها يزيدنى غـرامًا بها إن الملامة قد تُغْرِى

وكان يذهب مذهبه فى الإدمان عليها مالك بن أسماء صهر الحجاج الثقفى ووالیه على أصبهان ، وله فيها أشعار ساقها أبو الفرج فى ترجمته[٥]. ولعل عراقيًّا لم يشتهر بها كما اشتهر الأُقَيْشر[٦] الأسدى وكان كوفيًّا خليعاً ماجناً ، وفيها يقول :

أَفْنَى تِلادى وما جمَّعتُ من نَشَبٍ قَرْعُ القَواقيزِ أفْواهَ الأَباريق[٧]

ويقول :

كُمَيْتٌ إذا فُضَّتْ وفى الكأْسِ وردةٌ لها فى عِظام الشاربين دبيبُ

(١) لا سبد ولا لبد : مثل أى لا قليل ولا كثير .
(٢) اللحد : شق للميت فى جانب القبر .
(٣) الشعر والشعراء ٢/٦٧٠ .
(٤) انظر ترجمته فى الأغانى (طبع الساسى) ٢١/١٣ وأمالى المرتضى ١/٣٨٠ وما بعدها وراجع فهارس الكامل للمبرد والبيان والتبيين والطبرى .
(٥) انظر ترجمته فى الأغانى (ساسى) ١٦/٤٠ والخزانة ٢/٤٨٥ ومعجم الشعراء ص ٢٦٦ والموشح ص ٢٢٠ والشعر والشعراء ٢/٧٥٦ .
(٦) انظر فى ترجمة الأقيشر أغانى (دار الكتب) ١١/٢٥١ والشعر والشعراء ٢/٥٤١ ومعجم الشعراء ص ٢٧٣ والخزانة ٢/٢٧٩ والموشح ص ٢٢١ .
(٧) التلاد : المال القديم. النشب : العقار والضياع . القواقيز : الكئوس وأوانى الخمر التى تشرب فيها .

وإذا مضينا إلى خراسان وسجستان وجدنا كثيرين يتورطون فيها ، وكأنما كان تغلغلهم فى الشرق دافعاً لهم إلى الإمعان فى المجون والتحرر من قوانين الدين ، أو لعلهم كانوا يريدون أن يزيحوا بها عن كواهلهم ما كانوا يحسون به من آلام الغربة وعناء الحروب. ويَرْوِى البلاذرى أن ثلاثة نفر من أهل الكوفة كانوا فى جيش الحجاج الذى وجهه إلى الديلم، وكانوا يتنادمون ، فمات أحدهم ، فدفنه صاحباه ، ومضيا يشربان عند قبره ، فإذا بلغته الكأس أراقاها على القبر ، وبكيا . ومات الثانى فدفنه صاحبه ، وظل عند قبرهما يشرب ويبكى إلى أن لحق بهما ، وقبورهم هناك تعرف بقبور الندماء[1]. ومن الشعراء الذين اشتهروا بمعاقرتها والنظم فيها هناك الشَّمَرْدَل[2] بن شَرِيك، وكان قد خرج للغزو فى تلك الديار مع ثلاثة من إخوته . فماتوا جميعاً ورثاهم رثاء حاراً ، وكأنه كان يغرق فيها حزنه . ومنهم أبو جِلْدة اليشكرى الذى سبق أن عرضنا له فى شعراء ثورة ابن الأشعث ، وكان يُدْمنها إدماناً ثم تاب عنها، فقال[3] :

سأرْ... سُ فى التقوى وفى العِلْم بعدما ركضتُ إلى أمر الغَوِىِّ المشهَّر

ونحن لا نصل إلى أواخر هذا العصر حتى تشتد موجة المجون فى خراسان والعراق جميعاً ، وخاصة الكوفة ، حيث تنشأ جماعة كبيرة من المجان على رأسها مطيع وحماد الراوية وحماد عَجْرد ويحيى بن زياد، وهم جميعاً ممن عاشوا فى الدولتين الأموية والعباسية، وهم من هذه الناحية أكثر صلة بالعصر العباسى منهم بالعصر الأموى ، ولذلك رأينا أن نؤخر الحديث عنهم . على أنهم يلفتوننا فى قوة إلى تهالك الناس على المجون فى الكوفة فى أواخر العصر ، تهالكاً تحرروا فيه من كل خلق وعرف ودين . ولعل مما هيأ لهذا الانحلال الخلقى على الأقل عند بعض الأفراد فى هذا العصر أن بعض خلفاء بنى أمية المتأخرين جعلوا يقبلون على اللهو ، يتقدمهم فى ذلك يزيد بن عبد الملك ، وابنه الوليد الذى أكبَّ على الخمر والمجون إكباباً، كما أكبَّ على نظم الخمريات وهو وأبو الهندى شاعر سجستان أهم من عاشوا هذه الحياة الماجنة .

---

(١) فتوح البلدان ص ٣٢٠ .

(٢) انظر ترجمته فى أغانى (دار الكتب) ١٣ / ٣٥١ وما بعدها والشعر والشعراء ٢ / ٦٨٥ .

(٣) أغانى (دار الكتب) ١١ / ٣٤٠ .

obeikandi.com

الوليد[1] بن يزيد

وُلد لأبيه يزيد بن عبد الملك فى سنة ٨٨ للهجرة ، فتفتحت عينه على النعيم والترف ، بل على اللهو والمجون ، إذ كان أبوه كلفاً بالخمر والغناء ، حتى فى خلافته ، إذ كان يستقدم مغنىّ مكة والمدينة ومغنياتهما ، واشترى سلاّمة القس وحبابة ، وانصرف عن شئون الدولة إليهما وإلى الغناء والطرب والقصف . وقد نشأ ابنه الوليد على مثاله ، بل لقد أخذ يسرف فى المجون واللهو إسرافاً شديداً ، حتى فكر هشام بن عبد الملك الذى خلف أباه أن يصرف ولاية العهد عنه لفساد خلقه ، ولكنه توفىّ سنة ١٢٥ قبل أن يحقق فكرته . واستوى الوليد على عرش الخلافة ، فإذا هو يحوّل قصره ببادية شرقى الأردن مقصفاً كبيراً للخمر والعزْف والغناء ، إذ لم يترك مغنياً فى مكة والمدينة دون أن يستقدمه ، وأخذ يعبُّ من كئوس المجون عبّاً ، جعل أهله يتنكرون له ، ويقتله ابن عمه يزيد بن الوليد فى جمادى الآخرة سنة ١٢٦ تؤازره اليمانية ثأراً لخالد القسرى وما كان من تعذيبه له وقتله .

وعلى هذا النحو يذهب ضحية مجونه ، ومما لا شك فيه أنه كان ماجناً يعكف على الخمر والغناء ، ويعيش للهو والصيد والقنْص ، حتى بعد خلافته ، فقد ظل فى نفس الجو الماجن ، الذى كان يتنفسه قبل اعتلائه عرش الخلافة ، ومن ثم آثر قصره ببادية شرقى الأردن على دمشق مستقر الخلافة الأموية ، ومضى يجلب إليه المغنين والمغنيات وآلات اللهو والطرب لا من الحجاز فقط ، بل أيضاً من خراسان ، فقد أسلفنا فى غير هذا الموضع أنه كلّف نصر بن سيار أن يبعث إليه بما فى ولايته الخراسانية من الخيل والبراذين الفارهة وآلات الصيد ، ومن أباريق الذهب والفضة وتماثيل السباع والظباء ، ومن البرابط والطنابير والوصيفات والصنّاجات ، فجمع له نصر من ذلك أشياء

---

(١) انظر فى ترجمة الوليد أغانى (دار الكتب) ١/٧ وما بعدها وانظرى فى سنى ١٢٥ و ١٢٦ وكتابنا التطور والتجديد فى الشعر الأموى ص ٣١٨ وحديث الأربعاء ١/١٦٩ وقد نشر ديوانه فى مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق .

كثيرة ، كانت موضع التندر بين الشعراء والأتقياء .

وينبغى أن لا نمضى مع الرواة فى كل ما تحدثوا به عن مجونه ، إذ نراهم يجعلونه مانوياً زنديقاً ، يسخر بالقرآن الكريم بل يمزقه تمزيقاً[١] . وفى الوقت نفسه تذكر بعض الروايات أنه قُتل وهو يقرأ القرآن ويقول : يوم كيوم عثمان[٢] . وفى الحق أن أبناء عمه من الأمويين كانوا أول من بالغ فى وصفه بالمجون ، ثم جاء العباسيون بعدهم ، فاستغلوه فى التشنيع على خلفاء بنى أمية ، وأنهم انزلقوا إلى الدرك الأسفل من انتهاك ما حرَّم الله ومن شُرْب الخمر وإتيان الفسق ، بل الكفر جملة والخروج من حدود الدين . ونحن مع تنحيتنا لهذه المبالغات التى لعبت فيها السياسة دوراً كبيراً نحتفظ للوليد بمجونه وعكوفه على اللهو والصيد والقنص وإدمانه للخمر ولهجه بالغناء لهجاً مسرفاً .

وكان الوليد شاعراً مبدعاً ، فأنفق شعره فى الخمر ، وله أشعار فى الغزل والحب ، ولكنها دون أشعار الخمر فى الإبداع والروعة ، ويظهر أنه ثقف كل ما نُظم فيها قديماً ، وخاصة عند عدى[٣] بن زيد العبادى ، وقد مضى ينميِّه ويضيف إليه من مواهبه ومشاعره وملكاته ما أتاح لفن الخمريات أن يأخذ طريقه إلى الظهور ، إذ لم تعد أشعار الخمر عنده توضع فى ثنايا قصيدة أو فى مقدمتها كما كان الشأن عند عدى وعند الأعشى ، بل أصبحت تُنْظَمُ فى مقطوعات ، لها وحدتها الموضوعية والمعنوية ، تنبض بالحياة وتخفق بالجذل والسرور ، لسبب طبيعى ، هو أن ناظمها عاشق للخمر ، وهو ينظمها فى غمرة عشقه ، وكأنما تفجَّر له ينابيع الفرح تفجيراً . واقرأ له هذه الخمرية :

اصْدَعْ نَجِيَّ الهموم بالطَّرَب ... وانْعَمْ على الدَّهْر بابْنَةِ العِنَبِ
واستقبلِ العيشَ فى غضارتهِ ... لا تَقْفُ منه آثارَ مُعْتقبِ
من قهوةٍ زانها تقادُمها ... فَهْىَ عجوزٌ تعلو على الحِقَبِ

---

(١) راجع الأغانى ٧/٤٦ ومابعدها ، ٧/٧٢ .
(٢) انظر الطبرى ٥/٥٥١ .
(٣) انظر الأغانى ٧/٦٥ .

أشهى إلى الشَّرْب يومَ جَلْوتها ... من الفتاةِ الكريمة النَّسَبِ
فقد تجلَّت ورقَّ جَوْهَرُها ... حتى تبدَّتْ فى منظرٍ عجبِ
كأنَّها فى زُجاجها قَبَسٌ ... تذكو ضياءً فى عَيْن مُرْتقبِ

فهى فرحة الحياة ونعيمها، بل هى قبس سماوى يهبط برداً وسلاماً على قلوب المحزونين ، فيزيل ما فيها من أحزان وهموم ، ويردها إلى نشوة الفرح والمسرة .
واقرأ أيضاً هذه الخمرية :

علِّلانى واسقيانى ... من شرابٍ أَصْبهانى
من شراب الشيخ كِسْرى ... أو شرابِ القَيْروان
إن فى الكأْسِ لِمسْكا ... أو بكفَّىْ مَنْ سقانى
أو لقد غُودِرَ فيها ... حين صُبَّتْ فى الدِّنانِ
كلِّلانى تَوِّجانى ... وبِشعْرى غنِّيانى
إنما الكأْسُ ربيعٌ ... يُتعاطَى بالبَنَان
وحُميَّا الكأْس دَبَّتْ ... بين رِجْلى ولسانى

وهى تجرى أيضاً فى نطاق الفرحة العميقة بالخمر ، بل لعلها أقوى من سابقتها تعبيراً عن فرحته بها ، فهى فى رأيه عطر الوجود بل ربيعه، وهو يتلظى بنشوتها التى تسرى فى جسده من فَرْعه إلى قدمه . وهو بحق يُعَدُّ رائد العباسيين من أمثال أبى نواس فى هذا الفن من فنون الشعر ، ولاحظ ذلك النقاد قديماً فقال أبو الفرج : « وللوليد فى ذكر الخمر وصفتها أشعار كثيرة ، قد أخذها الشعراء فأدخلوها فى أشعارهم ، وسلخوا معانيها ، وأبو نواس خاصة ، فإنه سَلَخ معانيه كلها وجعلها فى شعره » .

ولم تستتم الخمرية عنده وحدتها الموضوعية والمعنوية وهذا الحب الذى يجعلها كاللهب المندلع فحسب ، فإنها استتمت عنده أيضاً التفاعل الحميم بين المعانى والألفاظ ، بل بين المعانى والإيقاعات إذ كان عازفاً محسناً ، يحسن اللعب على أوتار العيدان والتوقيع على الطبول والدفوف ، وله أصوات

مأثورة فى بعض أشعاره[١] . ومن ثَمَّ اجتمع للخمرية عنده طرافة المعنى وحلاوة النغم ، وقد مضى يؤثر الأوزان الخفيفة والمجزوءة من مثل الهَزج والرَّمَل ، بل لقد هداه ذوقه الموسيقى إلى اكتشاف وزن المجتثّ ، فكان أول من نظم فيه[٢] . وإذا صحت الخطبة الشعرية التى يقال إنه خطب بها فى يوم جمعة — وهى موعظة[٣] طويلة — كان أول من أعدّ لصورة المزدوجات التى شاعت بين أصحاب الشعر التعليمى فى العصر العباسى

أبو الهندى [٤]

هو غالب بن عبد القدوس بن شبث بن رِبْعىّ الرياحى التميمى ، وقيل اسمه عبد الله وقيل بل عبد المؤمن ، أدرك دولة بنى العباس ومات فى خلافة المنصور . وكان رحل إلى خراسان واستوطن فى أواخر عمره سِجستان ، واشتهر منذ مطالع حياته بالفسق وفساد الأخلاق ومعاقرته الشراب . ويقال إنه كان بخراسان يشرب على قارعة الطريق ، فمرّ به نصر بن سيار واليها للأمويين ، فقال له : ويحك يا أبا الهندى ألا تصون نفسك ؟ قال : لو صُنْتها لما وليت أنت خراسان . ولما انتقل إلى سجستان نزل بموضع يقال له بالفارسية : « كوى زيان » وتفسيره بالعربية سكة الخسران . كانت تُباع فيه الخمر وتُقْتَرَفُ الفواحش .

وكان شاعراً بارعاً ، وقد وهب شعره جميعه للخمر ، وهو من هذه الناحية يعد متمماً للوليد بن يزيد ، إذ دفع معه الشعر العربى إلى تمثل الخمرية بكل شياتها المعنوية والموسيقية ، وشهد له بذلك غير ناقد ، حتى لنرى إسحق الموصلى يقول إن معانى أبى نواس وطبقته فى الخمر مستمدة من أشعاره فيها ، ويقول ابن المعتز : « كان جماعة مثل أبى نواس والخليع وأبى هفّان وطبقتهم إنما اقتدروا على وصف الخمر بما رأوا من شعر أبى الهندى وبما استنبطوا من معانيه » . وله فى مداومة سكره وعدم إفاقته منه قصة تشبه قصة أبى نواس مع والبة . إذ يقال إنه

---

(١) الأغانى ٩/٢٧٤ و ٧/٣٢ ، ٤٤ .

(٢) انظر كتابنا الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (طبع دار المعارف) ص ٥٩ .

(٣) الأغانى ٧/٥٧ .

(٤) انظر فى ترجمته أغانى (ساسى) ٢١/١٧٧ والشعر والشعراء ٢/٦٦٣ وطبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ١٣٦ .

شرب عند خمار ونام ، ودخل جماعة فسألوا عنه ، فعرفوا خبره ، فشربوا وناموا وانتبه ، فرآهم ، فسأل عنهم ، فعرف أنهم مصرَّعون من الخمر ، فشرب ، حتى سكر ونام ، وانتبهوا فصنعوا صنيعه ، وأقاموا جميعاً كذلك عشرة أيام ، يفيقون ثم يشربون وينامون ، وروى قصته معهم فى بعض شعره . إنه يعيش للخمر ويعيش بالخمر ، يصف سُقاتها ودِنانها وأباريقها وزِقاقها مثل قوله :

يمجُّ سُلافًا من زِقَاقٍ كأنهـا شيوخُ بنى حامٍ تحنَّتْ ظهورها

وقوله :

وإذا صُبَّت لشَرْبٍ خِلتها حَبشيًّا قُطعتْ منه الرُّكَبْ

ونراه يصف القيان اللائى يسمعهن فى أثناء شربها ، كما يصف من تَصْرعهم وصفاً فيه براعة ، فقد أخلص لها نفسه ، ووجد فيها طمأنيته ، بل فرحته ومسرته حتى ليتمنى أن يضمها إلى صدره فى قبره ، فلا تزايله حيًّا ولا ميتاً ، يقول :

اجعلوا – إن متُّ يومًا – كَفنى وَرَقَ الكَرْمِ وقبرى مَعْصَرَهْ

وادْفنونى وادفِنوا الـرَّاحَ معى واجعلوا الأَقداحَ حول المَقْبَره

وعلى هذا النحو مضى أبو الهندى فى سكة الخسران إلى الأنفاس الأخيرة من حياته ، يَصْدَحُ بخمرياته ، ويتخذ الخمر وحى إلهامه .

٥

شعراء الطبيعة

لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الطبيعة دائماً كانت ملهماً بالغ التأثير فى نفسية الشاعر العربى ، وقد مضى أسلافه فى الجاهلية يَصْدُرون عنها فى أشعارهم ، فلم يتركوا كبيرة ولا صغيرة فى صمتها ولا فى حركتها دون أن يرسموها فى أشعارهم ، فهم يصورون فَلواتها بكُثْبانها ورمالها وغُدْرانها وغَيْثها وسيولها وخِصْبها وجَدْبها ونباتاتها وأشجارها وحيوانها وطيرها وزواحفها وهواجرها وما قد ينزل ببعض مرتفعاتها وأطرافها من البرد وقوارصه .

ومضى شعراء العصر الأموى – على سُنّة آبائهم – يستلهمون صحراءهم ، مزاوجين على شاكلتهم بين حب الطبيعة وحب المرأة ، إذ يفتتح الشاعر غالباً مطولاته بوصف أطلال الديار التى قضى بها شبابه مع بعض صواحبه ، ويسترسل فى الحديث عن ذكريات حبه . ولا يلبث أن يتحدث عن رحلته فى الصحراء ، وما قطع فيها من مفاوز على ناقته التى يُسْهب فى وصفها لما لها من جمال فى نفسه ، كما يُسْهب فى وصف فرسه إن كان فارساً ، وهو فى ثنايا ذلك يحدّثنا عن كل ما تقع عليه عينه فى صحرائه ويخلّف أثراً فى ذهنه من طير وحيوان فى الأرض ونجوم وكواكب فى السماء .

وعلى الرغم من أن جمهور الشعراء لهذا العصر عاش فى بيئات متحضرة ، فإن الصحراء لم تجفّ ينابيعها فى نفوسهم ، بل لقد ظلت ملهمهم الأول فى أشعارهم ، على نحو ما نجد عند مبرِّزيهم من أمثال الفرزدق والأخطل وجرير ، ومن خير ما يصور ذلك أبيات للفرزدق يوازن فيها بين طبيعة الصحراء ونُهَيْر دُجَيْل وما يجرى فيه من سفن ، موازنة يُعْلى فيها الطبيعة الأولى علوّاً كبيراً ، يقول[1] :

لفَلْجٌ وصَحْراواه لو سرتُ فيهما   أحبُّ إلينا من دُجَيْلٍ وأفضلُ[2]
وراحلة قد عوّدونى ركوبهـا   وما كنت ركّابًا لها حين تُرحَلُ[3]
قوائمُها أيدى الرجال إذا انتحتْ   وتَحْمل مَنْ فيها قُعودًا وتُحْمَلُ[4]
إذا ما تلقّتها الأواذىُّ شَقّهـا   لها جُؤْجُؤٌ لا يستريح وكَلْكَلُ[5]
إذا رَفعوا فيها الشِّراع كأنها   قَلوصُ نَعام أو ظَليمٌ شَمَرْدَلُ[6]

وواضح أنه يُؤْثر الطبيعة الصحراوية البدوية على طبيعة البيئات الجديدة وما فيها من أنهار وسفن تحمل الناس فى رحلات نهرية ممتعة . وهو يعبّر بذلك

---

(١) ديوان الفرزدق (طبعة الصاوى) ص ٦٢٦ .
(٢) فلج : واد من أودية تميم بين البصرة وحمى ضرية . ودجيل : من أنهار دجلة .
(٣) ترحل : تهيأ للرحيل .
(٤) القوائم هنا : المجاذيف بأيدى الملاحين .
(٥) الأواذى : الأمواج . الجؤجؤ : بطن السفينة من أمام ، الكلكل : الصدر .
(٦) قلوص النعام : طويلة القوائم ، الظليم : ذكر النعام ، الشمردل : الطويل تام الخلق .

عن شعوره وشعور مَنْ حوله من الشعراء الذين فُتنوا مثله بالصحراء ومناظرها الطبيعية أمثال ذى الرُّمَّة، وسنعرض له عما قليل . وكان يعاصره العَجَّاج وغيره من الرجَّاز . أمثال رُؤْبة الذى يقول[١] :

إن الرُّدافى والكَرِىَّ الأَرْقَبا يكفيك دَرء الفِيل حتى تَرْكبا[٢]

فهو يفضل ركوب الإبل على ركوب الفيل الذى يحتاج إلى الدفع قبل اعتلائه .

وليس معنى ذلك أن الشاعر الأموى لم يَفْسَحْ لطبيعة البيئات الجديدة فى شعره ، إنما معناه أن الطبيعة الصحراوية هى التى كانت تستولى على ملكاته ، أما بعد ذلك فقد كانت تنفذ طبيعة الأقاليم الجديدة إلى حواسه ، فيصور ما يراه بها من جبال وثلوج . وقد صور الفرزدق نفسه فى بعض رحلاته إلى دمشق ما كان ينزل عليه وعلى صحبه فى طريقه شتاءً من ثلج ، يقول[٣] :

مستقبلين شمالَ الشام تَضْربهم بحاصبٍ كنديف القُطْن منثورِ[٤]
على عَمائمنا يُلْقَى ، وأَرْحُلنا على زواحفَ نُزْجيها محاسيرِ[٥]

وكان جرير على شاكلته لا يزال يبدئ ويعيد فى وصف المناظر الصحراوية ومع ذلك تلقانا فى ديوانه قطعة صوَّر فيها نُهَيْرات شَقَّها هشام بن عبدالملك من نهر الفرات ، وخاصة نهير الهنىء ، وما نبت على ضفافها من زرع وزيتون وأعناب ونخيل ومن كل الثمرات ، وهى تطَّرد على هذا النمط[٦] :

شققتَ من الفُرات مباركاتٍ جـوارىَ قد بَلَغْن كما تريدُ
وسخَّرتَ الجبال وكُنَّ خُرْساً يقطَّع فى مناكبها الحديدُ

---

(١) الحيوان ٧/٩٠ .
(٢) الردافى : الحادى . الكرى : الذى يكرى دابته ويؤجرها. والأرقب : غليظ الرقبة. درء الفيل : دفعه وكفه .
(٣) للديوان ص ٢٦٢ .
(٤) شمال الشام : ريح شمالية . الحاصب : ما تحمله الريح من دقاق التراب أو الثلج . النديف : ثلج الثلج والبرد .
(٥) نزجيها : نسوقها وندفعها ، محاسير : كليلة.
(٦) ديوان جرير (طبعة الصاوى) ص ١٥٠.

بلغت من الهَنِيء فقلتَ شكرا هناك ، وسُهِّل الجَبل الصَّلوُد(١)
بها الزَّيتون فى غَلَلٍ ومالتْ عنـاقيد الكروم فهنَّ سود(٢)
فتمَّتْ فى الهَنِيءِ جِنانُ دُنْيا فقـال الحاسدون هى الخلود
يَعضُّون الأنامل أنْ رأوهـا بساتينًا يؤازرهـا الحَصِيدُ(٣)
ومن أزواجِ فاكهةٍ ونَخْـلٍ يكون لحَمْله طَلْعٌ نَضيدُ(٤)

وجرير يحدثنا عن شق الطرق للنهيرات فى الجبال وتحطيم ما يعترض من الصخور ، كما يحدثنا عن المناظر الطبيعية فى تلك البيئة وما حفَّ بها من أشجار فاكهة وغير فاكهة وزروع مختلفة .

فالشاعر الأموى مع استغراق مناظر الصحراء له لم يُغْمض عينيه عن مناظر البيئات الجديدة ، فقد كان يسجلها من حين إلى حين ، وخاصة منهم من كانوا يلهجون بالصيد وكلابه وصقوره وفهوده ، وسنعرض لذلك فى حديثنا عن الرُّجَّاز ، وقد تعرضت طائفة منهم لوصف الفيل ، على شاكلة قول رُؤْبة يصفه(٥) :

أَجْرَدُ كالِحصْن طويلُ النَّابَيْنْ مشرَّفُ اللَّحْيِ صغيرُ الفَقْمَيْنْ(٦)
عليه أُذْنان كفَضْل الثَّوْبَيْنْ

واشتهر فى هذا المجال هرون مولى الأزد(٧) . فالطبيعة الجديدة المتحركة والصامتة ألهمتهم كثيراً من الشعر والرجز ، ولكن من الحق أن بيئتهم الصحراوية كانت ملهمهم الأول فى هذا العصر .

---

(١) الصلود : اليابس .
(٢) الغلل : الماء الجارى تحت الشجر على وجه الأرض . الكروم : الأعناب .
(٣) الحصيد : الزروع التى تحصد ثمارها كالقمح .
(٤) الطلع : ثمر النخل فى إبانه . نضيد : منتظم .
(٥) الحيوان ٧ / ٧٩ .
(٦) الفقمان : اللحيان .
(٧) الحيوان ٧ / ١١٤ وما بعدها .

ذو الرُّمَّة [1]

هو غَيْلان بن عقبة من بنى عدى بن عَبْد مَناة ، لُقِّبَ بذى الرمة لقوله فى بعض شعره يصف الوَتِد : « أشعث باقى رُمَّة التقليد » والرُّمة : القطعة البالية من الحَبْل ، وأضيفت إلى التقليد لأن الوتد يتقلد بها . وقيل : لُقِّب بذى الرمة لأنه كان — وهو غلام — يتفزَّع ، فأتت به أمه مقرئ قبيلته ، فكتب له مَعاذة فى جلد غليظ ، وعلَّقتها أمه على يساره برُمَّة من حبل فسمِّى ذا الرمة . وقيل إن مية التى شغفت قلبه حبًّا هى التى لقَّبته بذلك حين ألمَّ بخِبائها وطلب منها أن تسقيه ماء ، وكان على كتفه رمة ، فلما أتته بالماء ، وكانت لا تعرفه ، قالت له : اشرب يا ذا الرمة . وقد وُلد بصحراء الدهناء بالقرب من بادية اليمامة ، لأم من بنى أسد تسمى ظبية . وكان له ثلاثة إخوة كلهم شعراء . هم مسعود وأوفى وهشام ، وفى بعض الروايات أن أوفى ابن عمه ، أما أخوه الثالث فاسمه جرفاس .

وقد ولد حوالى عام ٧٧ للهجرة . وتلقَّن الكتابة ، وليس بين أيدينا أخبار كثيرة عن نشأته الأولى ، ونراه ينظم الشعر فى خلاف نشب بين قبيلته وعتيبة بن طَرِيف بسبب بئر كانت لقومه ، ومن ثم مضى يمدح المهاجر بن عبد الله والى اليمامة مثنياً على حكومته العادلة فى هذا الخلاف . ومن أخباره المتصلة بقبيلته أيضاً أنه نزل مع نفر منها على عشيرة امرئ القيس بن عبد مناة . فلم يكرموهم . فانطلق يهجوهم ، وكان ذلك سبباً فى اصطدامه بشاعرهم المسمى هشاماً المرَّئى . ولم يستطع هشام أن يثبت له لضعف شاعريته ، على الرغم مما أمدَّه به جرير من بعض الأشعار .

وتدل أخباره على أنه كان ينزل الكوفة والبصرة — ويطيل النزول فيهما — منذ مطالع القرن الثانى للهجرة مادحاً رجالاتهما ، وأول ما نستقبله من ذلك مديحه

---

(١) انظر فى ذى الرمة ابن سلام ص ٤٦٥ وما بعدها والشعر والشعراء ١/٥٠٦ وأغانى (ساسى) ١٦/١٠٦ وابن خلكان فى غيلان والموشح للمرزبانى ص ١٧٠ والخزانة ١/٥٠ ومرآة الجنان لليافعى ١/٢٥٣ وفهارس الأغانى والبيان والتبيين والحيوان والكامل للمبرد وأمالى المرتضى ، وكتابنا « التطور والتجديد فى الشعر الأموى » ص ٢٦٥ وقد نشر مكارثى ديوانه فى كمبريدج سنة ١٩١٩

لهلال بين أحوز المازنى فى انتصاراته على المهالبة سنة ١٠٢ وقضائه على من بقى منهم بعد معارك مسلمة بن عبد الملك قضاء مبرماً . وقد مدح عبد الملك بن بشر بن مروان نائب مسلمة على البصرة . وتولّى على العراق فى سنة ١٠٣ عمر بن هبيرة الفزارى فاتصل به ومدحه ، حتى إذا خلفه خالد القسرى منذ سنة ١٠٥ رأيناه يمدح نوابه ومن ولاهم الشرطة والأحكام، وعلى رأسهم نائبه أبان بن الوليد البَجلى ، ومالك بن المنذر بن الجارود صاحب شرطته . وأهم من مدحهم بلال ابن أبى بُرْدة الأشعرى الذى ولى شئون الشرطة لخالد فى البصرة سنة ١٠٩ ، ثم ولى منذ سنة ١١٠ أمور البصرة كلها : القضاء والصلاة والأحداث ، وظل يليها إلى أن توفى الشاعر . وقدامتدت رحلاته فى طلب النوال إلى دمشق وخاصة فى عهد هشام بن عبد الملك ، فله فيه غير قصيدة ، كما امتدت إلى مكة حيث مدح واليها إبراهيم بن هشام المخزومى ، ولما ولى فارس أبان بن الوليد قصده ومدحه . وقد هجا فى بعض شعره حكيم بن عياش الكلبى الكوفى الذى كان يتعصب لليمن تعصباً مسرفاً .

والعناصر الإسلامية واضحة فى شعر ذى الرمة ، فهو يمدح بالتقوى ويهجو بالضلال ، ودائماً يذكر فى رحلاته الصحراوية التيمم والقَصْر فى الصلاة وتلاوة آى الذكر الحكيم ، ويظهر أنه كان كثير الاختلاف إلى مجالس الوعّاظ والمتكلمين فى عصره، حتى لنراه يعتنق مذهب القَدرية فى العدل على الله جلّ جلاله وفى حرية الإرادة ، ويناقش رؤبة فى ذلك ويعلو عليه فى نقاشه[1]، ومما صدر فيه عن مذهبه قوله فى الغزل :

وعَيْنان قال اللهُ كونا فكانتا فَعولان بالألباب ما تفعل الخمر

وقد تعرض له بعض من سمعوه ينشده ، يقول : هلا قلت : فعولين ، وكأنه لم يلتفت إلى أنه يتحرّز بذلك من القول بخلاف العَدْل وأن عملَ الإنسان وعمل جوارحه بإرادته . ويُجْمع معاصروه على أن كان ذكياً ذكاء حاداً وأنه كان كنزاً من كنوز الفطنة وذخائرها الدقيقة ، كما كان كنزاً من كنوز العلم بالشعر القديم واللغة ، وقد شُغف بشعر الراعى ، حتى قالوا إنه كان راويته

---

(١) أمالى المرتضى ١/١٩

ولعله هو الذى ألهمه عنايته بالصحراء ووصف مناظرها الطبيعية ، وقد مضى يتغناها إلى أن دُفن فى أحضانها سنة ١١٧ للهجرة .

وذو الرمة يتخلف فى المديح والهجاء جميعاً عن فحول عصره أمثال الفرزدق وجرير ، وكأن الطبيعة وما اقترن بها من حبه لم يُبْقيا فيه بقية. ومُلْهمته الأولى فى الديوان مَيَّة بنت طُلْبة بن قيس بن عاصم ، فقد رآها فى بعض رحلاته ، فشَغفت قلبه حباً ، وظل يتغنى باسمها وحبها فى كل مكان . وفى الديوان أخرى تسمى خرقاء ، ولعله كان يكنى بها عن مية ، وإن كان من الرواة من زعم أنها امرأة أخرى . وحبُّ ذى الرمة حب عفيف كله أنين وزفرات ودموع وحنين بالغ من مثل قوله :

وقفتُ على رَبْعِ لمَيَّة ناقتى ... فمازلتُ أبكى عنده وأُخاطبه
وأُسْقيه حتى كاد مما أَبثُّهُ ... تكلِّمنى أحجارُه وملاعبه[1]

وقوله :

وحبُّها لى سوادَ الليل مرتعداً ... كأنها النار تَخْبو ثم تلتهب

وقوله :

أدارًا بِحُزْوَى هِجْتِ للعين عبرةً ... فماءُ الهوى يرفضُّ أو يترقرقُ[2]

وقوله :

أَجَلْ عبرةً كادتْ لِعِرْفان منزلٍ ... لمَيَّة لو لم تُسهلِ الماء تَذْبَحُ

ولعل شاعراً عربيًّا لم يكثر من وصف دموعه كما أكثر ذو الرمة ، وعبثاً كان يطفئ بها نيران الحب المندلعة فى قلبه لمية ، وقد مضى يتعزَّى عنها بمحرابها الذى كانت تعيش فيه ، فإذا هو أكبر شاعر يتغنى بالصحراء العربية ، وحقًّا كان الشعراء قبله وحوله يصفونها ، ولكنه امتاز منهم بأنه عشقها ، عشق أيامها ولياليها ورمالها وكثبانها وآجامها وأعشابها وأشجارها وحيوانها الأليف والوحشى

---

(١) أسقيه : أدعو له بالسقيا . يسيل . يترقرق : يسكن فى العين جائلا .
(٢) حزوى : موضع بديار تميم . يرفض :

وكل ما يُطْوَى فيها من آبار وسمائم وسراب وطير ورياح وكل ما يلمع فى سمائها من كواكب ونجوم وسحاب وغيوم .

وكأنما وجَد ذو الرمة عشقه الحقيقى فى الصحراء ، فإذا هو ينقل مناظرها إلى شعره فى لوحات رائعة ، وارجعْ إلى القصيدة الأولى فى ديوانه التى يفتتحها بوصف دموعه التى تسيل دائماً ولا تفتر ، إذيقول :

ما بالُ عينك منها الماءُ يَنْسكبُ

كأنه من كُلًى مَفْرِيَّةٍ سَرِبُ (١)

فإنك سترَاه يخص محبوبته بنحو عشرين بيتاً ، ثم يمضى فى نحو مائة بيت يصور ثلاثة مشاهـــد رائعة من مشاهد الصحراء التى كانت تبهج نفسه ، أولها مشهد أتُن الوحش وحمارها ، وهو يقودها فى يوم حارٍّ إلى ماء بعيد ، تصل إليه ، وتهوى عليه تريد أن تشفى غُلَّتها ، فيتعرض لها صائد مختف وراء الأشجار بسهامه ، فتفرُّ على وجهها ، وتطيش سهامه ، ودائماً تطيش هذه السهام فى شعر ذى الرمة حبًّا للحيوان . والمشهد الثانى مشهد ثور الوحش فى كِناسه مكتنًّا من المطر ، وقد ترامت حوله حنادس الليل ووساوسه ، وتتفلت أضواء الصباح فيخرج من كناسه للرعى وإذا بصائد قد أرسل عليه كلابه ، فيمزقها إرباً ، وينكشف عنه همه وروعه . والمشهد الثالث مشهد الظليم وصاحبته يرعيان بعيداً عن أفراخهما ، ويكفهرُّ الجو ، فيسرعان إليها خيفة أن يسقط عليها بَرَدُ السماء أو بعض السباع . وذو الرمة فى المشاهد الثلاثة يشبه الرسامين الذين يحشدون فى لوحاتهم جميع الجزئيات والتفاصيل ، فهو يجسِّم صورة الحيوان وصورة الصحراء من حوله برمالها ومفازاتها وأعشابها ونباتاتها وغُدْرانها ، وهو إلى ذلك يبثُّ فى الحيوان مشاعر الإنسان وما يعتريه من وساوس وهواجس . وقد صور فى الثورحين هاجمته الكلاب شعوره بعزته وكأنه يمثِّل فيه البدوى وإحساسه بكرامته ، كما صور فى الظليم وصاحبته عاطفة الأبوة والأمومة الرحيمة .

ولعل هذه أهم خاصة تميِّز وصف الحيوان الوحشى عند ذى الرمة إذ يحمِّله

---

(١) الكلى : الرقع فى عروة المزادة . مفرية : مقطوعة ، يشبه عينه التى يسيل دمعها برقع المزادة . سرب : التى لا تنى ترسل الماء .

عواطف الإنسان ومشاعره ، ومن أروع ما يصور ذلك عنده قوله فى ظبية وابنها أو خِشْفها :

إذا استودعتْه صفْصَفاً أو صَرِيمةً ... تنحَّتْ ونَصَّتْ جِيدها بالمناظرِ[1]

حِذارًا على وَسْنانَ يَصْرعه الكَرَى ... بكل مَقيلٍ عن ضِعافٍ فواترِ[2]

وتهجرُه إلا اختلاسًا نهارَها ... وكم من محبٍّ رَهْبةَ العين هاجر

حذارَ المنايا رهبةً أن يَفُتْنَها ... به وهْى إلا ذاك أضعفُ ناصر[3]

وواضح أنه صور محبة الظبية لابنها وكيف تخشى عليه السباع ، فهى تبعد عنه حتى لا تدلهَّا عليه ، وعينها مشدودة إليه ، وقد امتلأ قلبها بالحنان والحب والشفقة . وعلى هذا النحو كان يبثّ فى الحيوان مشاعر الإنسان وأحاسيسه .

وبجانب هذه الخاصة فى وصف الطبيعة الحية نجد خاصة أخرى فى وصف الطبيعة الصامتة ، إذ ملأها بالحياة والحركة ، ولكن كيف يأتى بذلك فى خمود الصحراء وهمودها ؟ لقد استعان فى النهار بالسراب ، فإذا ذُرّى الجبال تتحرك كأنها خيل ظالعة أو إبل تُهدَى للنَّحْر عند البيت الحرام ، أو لعلها سفن تجرى فى الفرات ، أما إذا جنَّه الليل فحسبه النجوم التى يرى فيها صورة بقر الوحش والظباء . وجعله هذا التمثل لما يجرى فى الأرض والماء والسماء يقع على صور فريدة من مثل قوله فى وصف ظباء تبدو له من آفاق بعيدة :

كأنَّ بلادَهن سماءُ ليـــلٍ ... تُكَشَّفُ عن كواكبها الغُيومُ

وقوله فى ظباء أخرى :

كأنَّ أُدْمانَها والشمسُ جانحةٌ ... وَدْعٌ بأرجـــائها فَضٌّ ومنظومُ[4]

وقوله فى وصف الإبل ورحلتها فى الصحراء :

كأنَّ مَطايانا بكل مفـــازةٍ ... قراقيرُ فى صحراء دجْلةَ تَسْبَحُ[5]

---

(١) الصفصف : الأرض المستوية . صريمة : رملة . نصت : نصبت مستقصية .
(٢) الكرى : النوم . المقيل : وقت القيلولة .
(٣) يفتنها . يسبقنها .
(٤) الأدمان : الظباء ، فض : متفرق .
(٥) القراقير : السفن .

وفى الحق أن مخيلته كانت حالمة، إذ ما تزال تبدو له الطبيعة فى رُؤًى غريبة ، وهى رُؤًى ملأت جوانب ديوانه بتجسيمات وتشخيصات بديعة من مثل قوله :

وريحُ الخُزامى رشَّها الطَّلُّ بعدما دَنا الليلُ حتى مسَّها بالقَوادمِ[1]

وقوله :

ألا طرقتْ مَىٌّ هَيُوماً بذكرهـا وأيدى الثُّريَّا جُنَّحٌ فى المغاربِ[2]

ومن صوره الطريفة صورته للحرْباء ووصفه لما اشتهر به من استقبال الشمس لاجئاً بظهره إلى بعض العيدان ماداً يديه كأنه مصلوب، يقول :

إذا جعل الحِرْباءُ يَغْبَرُّ لـونه ويخضرُّ من لَفْح الهجيرِ غَباغِبُه[3]
ويَشْبَحُ بالكَفَّيْن شَبْحاً كأنه أخو فَجْرةٍ عالَى به الجِذْعَ صالبه[4]

وعُنِى طويلا بوصف همس الفلوات وما يُسْمع فى حنادسها من أصوات مدوية كانوا ينسبونها إلى الجن ، ونراه يشبِّهها بتراطن الروم وتَضْراب الطَّبْل وصياح الضرائر وأصوات السمر[5]. ومن أهم ما يميزه عنصر المفاجأة فى صوره ، وهو عنصر جعله يقرن الأشياء المتباعدة بعضها إلى بعض ،فنصبح وكأننا حقا فى عالم من عوالم الرؤى والأحلام .

٦

الرُّجَّاز

الرَّجَزُ من البحور القديمة فى الشعر العربى ،فقد كان يُسْتَخْدَم بكثرة فى العصر الجاهلى ، وهى كثرة تؤكد أنه كان الوزنَ الشعبىَّ العام الذى يدور على

---

(١) القوادم : الريش الطويل فى جناح الطائر .
(٢) الهيوم : ذاهب العقل ، وأراد بأيدى الثريا أوائلها .
(٣) الغباغب : الجلد أسفل الحنك ، ومعروف أنه كلما حميت الشمس على الحرباء رأيت جلده يخضر بينما يظل أعلاه أصفر.
(٤) يشبح : يمد يديه .
(٥) الحيوان ٦/١٧٥ ومابعدها، ٢٤٧، ٣٦٣.

كل لسان ، ومن ثَمَّ قلما وجدنا شعراءهم المبرزين ينظمون فيه وكأنما تركوه للجمهور يتعهده ويرعاه .

وليس ذلك كل ما نلاحظ فى شعبيته الجاهلية ، فقد دخلت فيه صور كثيرة من الزِّحاف ، لا تلقانا فى أى وزن آخر ، فكثر فيه المشطور والمنهوك ، وأيضاً فإنه لم يَطُلْ إذ كان لا يتجاوز البيتين والثلاثة إلا نادراً ، فهو مقطوعات قصار ، ينظمها كثيرون معروفون ومجهولون ، حين يَحْدون ببعير وحين يجولون فى ميادين الحروب ، وحين يتناولون أى عمل كحَفْر بئر أو مَتْح منها .

وعلى هذا النحو كان أبياتاً قليلة تُنْظَم بديهة وارتجالا مقترنة بأعمالهم وحركاتهم السريعة والبطيئة ، ومن ثَمَّ قيل إنهم حاكوا به وقع أقدام إبلهم فى سيرها وسُراها ، وهيَّأه ذلك لأن يكون من أكثر الأوزان وأوفرها لحناً ونغماً لاقترانه بالحركة الدائبة .

وأول من أطاله وجعله كالقصيد شاعر مخضرم استشهد بموقعة نهاوند سنة ٢١ للهجرة هو الأغلب[1] العِجْلىّ . ولا نتقدم فى عصر بنى أمية ، حتى يتكاثر من يحاكونه . وحتى يَقْصر بعض الشعراء النابهين حياتهم على تجويده وتحبيره ، وهم فى ذلك فريقان : فريق يجمع بينه وبين القصيد ، وفريق لا يجاوزه ، ولسنا نقصد بالفريق الأول من نظموا بعض أراجيز قليلة مثل جرير وذى الرمة ، إنما نقصد من أكثروا منها . ونظموا بين الحين والحين بعض القصيد .

وقد أخذت الأرجوزة — حين طالت — تتناول كل أغراض القصيدة وتجرى على نمَطها من الحديث عن الأطلال ووصْف الرحلة فى الصحراء والمديح والهجاء والفخر ، فهى لا تختلف غالباً عنها فى النظام وسَرْد الموضوعات المتنوعة . ومضت تَزْحَمُها حتى غلبتها فى باب الصَّيْد بالجوارح ، إذ نجد غير شاعر ينظم فى هذا الباب أراجيز كثيرة ، منهم الشَّمَّرْدل بن شَريك التميمى الذى عرضنا له بين شعراء اللهو والمجون وفيه يقول صاحب الأغانى : « كان الشَّمَّرْدلُ صاحب قَنْص وصيد بالجوارح وله فى الصَّقْر والكلب أراجيز كثيرة[2] » ويسوق له أرجوزة يسهّلها على هذا النمط :

---

(١) انظر فى ترجمته الشعر والشعراء ٢ / ٥٩٥ والأغانى ١٨ / ١٦٤ والخزانة ١ / ٣٣٢ وأسد الغابة ١ / ١٠٥ والإصابة ١ / ٥٦ وابن سلام ص ٥٧١ وما بعدها والموشح ص ٢١٣ .

(٢) أغانى (دار الكتب) ١٣ / ٣٦١ .

قد أغتدى والصبحُ فى حِجابهِ   والليلُ لم يأوِ إلى مآبهِ

وقد بدا أبْلقَ من مُنْجابه   بتوّجىٍّ صاد فى شبــابه(١)

مُعــاودٍ قد ذلَّ فى إصعابهِ   قد خرّق الضِّفارَ من جذابه(٢)

وعرفَ الصوتَ الذى يُدْعَى بهِ   ولمعــةَ المُلْمعِ فى أثــوابه(٣)

ويلقانا بأخرة من العصر أبو نُخَيْلة(٤)، وهو مثل الشمردل كان يجمع بين الرجز والقصيد، ويقول ابن المعتز: «له فى الطَّرْد أراجيز كثيرة مشهورة ... وأعاجيبه فى القَنَص وغيره كثيرة» وقد ساق له أطرافاً من تلك الأراجيز، ولعل فى هذا ما يصحح الفكرة التى كانت تزعم أن أبا نواس أول من فتح هذا الباب. وربما كان أهمّ من جمع بين الرجز والقصيد فى هذا العصر أبو النجم العجلى، وسنعرض له عما قليل.

ويلقانا كثيرون لا يتجاوزون الرجز إلى القصيد، منهم دُكَيْن(٥) بن رجاء الفُقَيْمى ودكين(٦) بن سعيد الدارمى، وقد خلط بينهما ابن قتيبة كما لاحظ ياقوت فى معجمه، ومنهم الزَّفيان(٧) السعدى التميمى، وأبرزهم جميعاً العجّاج وابنه رُؤْبة اللذان انتهت إليهما صناعة الرجز، ونقول صناعة، لأن الرجز تحول عندهما إلى صناعة لغوية، فلم يعد يُقْصَد به إلى التعبير عن الأغراض الوجدانية وحدها، بل أصبح يُقْصَد به أيضاً إلى التعبير عن غرائب اللغة، وشركهما فى ذلك من بعض الوجوه أبو النجم، ولكنه لم يُبْعد فى الإغراب إبعادهما.

---

(١) أبلق: فيه سواد وبياض. منجابه: مكان انكشافه. التوجى: الصقر ينسب إلى توج من قرى فارس.

(٢) خرق: شق. الضفار: الحبل يشد به.

(٣) الملمع: المشير بثوبه.

(٤) انظر فى ترجمته الشعر والشعراء ٢/٥٨٣ والأغانى (ساسى) ١٨/١٣٩ والخزانة ١/٧٨ وطبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ٦٢ وما بعدها والموشح ص ٢١٩.

(٥) انظره فى معجم الأدباء (طبع مصر) ١١/١١٣ والشعر والشعراء ٢/٥٩٢ وتهذيب ابن عساكر ٥/٢٤٧.

(٦) راجع معجم الأدباء ١١/١١٧ وابن عساكر ٥/٢٤٨ والشعر والشعراء ٢/٥٩٢ وانظر الهامش.

(٧) راجع معجم المرزبانى ص ١٦٩ وقد نشر ألوارد ديوانه فى مجموع أشعار العرب، الجزء الثانى.

obeikandi.com

ونحن نجد هذه الرغبة فى العناية بالغريب عند كثير من الشعراء ، مثل الطِّرِمَّاح والكُمَيْت ، وقدعرضنا لهما فى غير هذا الموضع .واشتهر شُبَيْل بن عَزْرة الضُّبَعِيّ بأشعار له بناها على اللفظ الغريب [١] . وهو اتجاه تعليمى نظن ظنًّا أن الذى دعا إليه عناية الأجانب بتعلم العربية ونهوض طائفة من العلماء بجمع اللغة وشواردها ، وقد انبرى العَجَّاج وابنه رُؤْبة يجمعان لهم فى شعرهما هذه الشوارد حتى تحوَّل ديواناهما إلى معجمين للغرائب اللغوية ، وهما بحق يُعَدَّان أهم من هَيَّأ لتحول الرجز من شعبيته القديمة إلى بيئة المثقفين ، وسرعان ما استغله العباسيون فى شعرهم التعليمى الذى صنفوا فيه أهل المقالات وتحدثوا عن عجائب الخلق وقَصّوا وساقوا الحكم والأمثال [٢] .

أبو النجم [٣] العِجْلىّ

من أهل الكوفة ، وكانت فيه فكاهة ، فقرب من نفوس الولاة والأمراء والخلفاء ، وله فيهم أمداح كثيرة ، إذ نراه يمدح الحجاج وغيره من ولاة العراق كما يمدح سليمان بن عبد الملك وهشاماً ، وقد أقطعه الأخير بالكوفة أرضاً تسمى الفِرْك ، كان ينزل بها . وفى أخباره أنه قدم على زياد بن أبيه فرهبه رهبة شديدة ، وخرج من عنده ، وهو يقول [٤] :

أقبلتُ من عند زيادٍ كالخَرِفْ تَخُطُّ رِجلاى بخطٍّ مختلفْ
تكتُّبان فى الطريق لامَ ألفْ

وفى ذلك ما يدل على أنه كان كاتباً . ويُجْمع الرواة على أنه كان سريع البديهة فى صنع الشعر ونظمه ، ومن ثَمَّ كان يغلب الشعراء والرجَّاز حين

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٤٣ وانظر كتاب المكاثرة عند المذاكرة للطيالسى (نشر جاير) ص٤٠ .

(٢) انظر كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (طبع دار المعارف) ص١٣٩ وما بعدها.

(٣) راجع فى أبى النجم ابن سلام ص ٥٧٦ والموشح ص ٢١٣ والشعر والشعراء ٢/٥٨٤ وأغانى دار الكتب ١٠/١٥٠ والخزانة ١/٤٨ ، ٤٠١ والمبرد ص ٤٨٥ وما بعدها ومعجم الشعراء ص١٨٠ .

(٤) الخصائص لابن جنى (طبع دار الكتب) ٣/٢٩٧ .

يتَسْتبقون فى موضوع يطرحه خليفة أو وال ، ويظفر بالجائزة من دونهم ، ويقول ابن سلام : إنه أبلغ فى النَّعْت من العجاج . وأمّ أراجيزه لاميته التى يستهلها بقوله (١) :

الحمدُ لله الوَهــوب المُجْزِلِ أَعْطى فلم يَبْخَلْ ولم يُبَخَّــلِ

والأرجوزة بعد ذلك تفيض بالغريب فى وصف الإبل ومراعيها ، وكان رؤبة يسميها أمّ الرجز استحساناً لها وإعجاباً بها . ويُرْوَى أن العَجَّاج غدا على الناس بالمِرْبَد ينشدهم أرجوزته المشهورة «قد جبَرَ الدينَ الإلهُ فجبَرَ (٢)» وقد ضمنها هجاءه لربيعة ، فاستعدتْ عليه راجزها أبا النجم ، فبادره ينشد أرجوزته «تذكَّر القلبُ وجَهْلا ما ذكَرْ» حتى إذا بلغ إلى قوله : «شيطانُه أنثى وشيطانى ذَكَرْ» تعلّق الناس هذا الشَّطْر وهرب العجاج عنه . ومن طريف ما يُرْوَى من أراجيزه أرجوزته فى وصف فهود عبد الملك بن بشر بن مروان ، وهو يستهلها بقوله :

إنا نزلنا خيرَ مَنْزِلاتِ بين الحُمَيْرات المباركاتِ
فى لحم وحشٍ وحُبارَياتِ وإن أردنا الصيد ذا اللذّات (٣)
جاء مُطيعًا لمطاوِعــاتِ عُلِّمْنَ أو قد كُنَّ عالماتِ
فَهْى ضوارٍ من مضرّياتِ تُريك آماقًا مخطَّطاتِ
سودًا على الأشداق سائلات تَلْوى بأذناب مــوقّفاتِ

وكثير من رجزه على هذا النحو لا يُبْعد فيه ولا يغرب ، وإن كان من الحق أنه «كان يتوسع فى الكلام ويحمل بعضه على بعض ويشتق بعضه من بعض (٤)» ، ولكنه يظل قريباً منا فى جمهور رجزه ، وخاصة حين يعمد إلى التندر والدعابة ، على شاكلة قوله يوصى ابنته «برّة» عند زواجها :

---

(١) نشر هذه اللامية عبد العزيز الميمنى فى «الطرائف الأدبية» طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ٥٥ .

(٢) جبر الثانية بمعنى انجبر .

(٣) حباريات : جمع حبارى وهو طائر .

(٤) الخصائص ١/٢٣٠ .

أوصيتُ من بَرَّةَ قلبا حُرًّا بالكلب خيرًا والحماةِ شَرًّا
لا تسأمى ضَرْبًا لها وجرًّا حتى تَرِىْ حُلْوَ الحياة مُرًّا
وإن كستْكِ ذهبًا ودُرًّا والحىُّ عُمِّيهم بشَرٍّ طُرًّا

وكان بمثل هذه الدعابة يخف على قلوب الولاة والخلفاء ، فيفسحون له فى مجالسهم ويجزلون له العطاء .

العَجَّاج[1]

هو عبد الله بن رُؤْبة التميمى ، نشأ فى البادية ونزل البصرة ، وكان دائب الرحلة إلى منازل قومه فى الصحراء ، وقد سخَّر أراجيزه منذ يزيد بن معاوية فى مديح الخلفاء ، وخاصة سليمان . ونراه ينظم بلسان قومه فى خصومتهم للأزد عقب وفاة يزيد بن معاوية ، ولما ولى مصعب العراق لأخيه عبد الله بن الزبير لزمه ومدحه وهجا المختار الثقفى ، حتى إذا قتله عبد الملك بن مروان رأيناه يسارع إلى صفوف المروانيين ، فيمدح بشر بن مروان والى العراق وأخاه عبد العزيز والى مصر ، كما يمدح عمر بن عبيد الله بن معمر مشيداً بانتصاره على أبى فُدَيْك زعيم النَّجدات من الخوارج ، ويمدح أيضاً الحجاج ويهجو خصومه من مثل ابن الأشعث . وكانت فيه عصبية لقومه جعلته يضطرب فيما يضطربون فيه من خصومات قبلية ، ومرَّ بنا وقوفه بالمربد يهجو ربيعة ، وكيف اقتصَّ منه أبو النجم . واشتهر بأنه لايحسن الهجاء ، وسُئل فى ذلك فقال : هل فى الأرض صانع إلا وهو على الإفساد أقدر .

وأراجيزه مليئة بأوابد اللغة وشواردها التى ينثرها ، بل يضمها بعضها إلى بعض ، فى وصف الطبيعة الصحراوية بمناهلها وغدرانها ورمالها وكُثْبانها ونباتاتها وحيوانها الوحشى والأليف ، وكل ما يجرى فى أرضها من رياح وسموم وطير وفى

(١) انظر فى العجاج الشعر والشعراء ٢/٥٧٢ والموشح للمرزبانى ص ٢١٥ وما بعدها وشرح شواهد المغنى ١٨ وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٧/٣٩٤ وفهارس البيان والتبيين والخصائص لابن جنى والمزهر للسيوطى (طبعة الحلبى) وقد نشر ألوارد ديوانه فى مجموع أشعار العرب ، الجزء الثانى .

سمائها من كواكب ونجوم . وهو يُعَدّ بحق أول من فسح طاقة الرجز وجعله يخوض فى كل ما تخوض فيه القصيدة العربية الطويلة . وهو أيضاً أول من دفعه بقوة من الميادين الشعبية إلى ميدان الغرابة اللفظية ، ولم يكتف بذلك ، فقد أخذ يقيس فى اللغة ويكثر من القياس ، ويتصرف حسب ذوقه وإرادته الفنية . ولم يقف فى ذلك عند ألفاظ اللغة العربية وحدها ، إذ كان يعمد إلى بعض الألفاظ الفارسية فيعرّبها ، وقد يصرّف منها أفعالا ، على نحو ما صنع فى أرجوزته الجيمية ، إذ يلقانا فيها هذا الشطر : « كما رأيت فى الملاء البَرْدَجَا » يريد الرقيق ، وقال : « كالحبشى التفّ أو تسبَّجا » يريد لبس قميصاً ، وهو بالفارسية شبى ، فعرّبه بسبيجة ، ثم صرّف منه فعلا فى بعض أبياته [1] .

ونراه يلتزم فى أراجيزه الموقوفة أو المختومة بالسكون أن يكون موضع الروىّ فى الإعراب واحداً ، بحيث لو أُطلقت قوافيها تحركت جميعاً بحركة واحدة ، على نحو ما يلاحَظ ذلك فى أرجوزته الطويلة « قد جبر الدين الإله فجَبَر » ، وهى فى نحو مائتى بيت ، ولو أطلقت قوافيها كانت كلها منصوبة [2] . ومن طريف ما كان يأخذ به نفسه أحياناً أن نراه يعدل عن افتتاح بعض أراجيزه بذكر الأطلال ووصف الصحراء إلى الحمد والثناء على الله ، وقد يسترسل فى ذلك استرسالا ، فتصبح الأرجوزة موعظة تامة ، على شاكلة أرجوزته :

الحمدُ لله الذى استقلَّتِ بإذنه السماءُ واطمأنَّتِ

وقد تحدَّث فيها عن خلق السموات والأرض ، والبعث والنشور ، وما أفاء الله عليه من نعمه ، وقلقه على مصيره ورجائه فى ثوابه . وهو فى ذلك يتأثر مباشرة بمواعظ الوعاظ من حوله أمثال الحسن البصرى وغيره وقد توفى سنة ٩٧ للهجرة . وتُنْسَبُ له أرجوزة فى مديح يزيد بن عبد الملك ، وإن صحت يكون قد لحق أوائل القرن الثانى حين كان يزيد خليفة ، وهو على كل حال مات عن سن

---

(١) الوساطة بين المتنبى وخصومه (طبعة الحلبى) ص ٤٦١ وما بعدها .

(٢) انظر الأغانى (طبع ساسى) ١٨/٦٠ والخصائص ٢/٢٦٠ .

عالية . ونراه فى أراجيزه يكثر من بكاء الشباب وتصوير شيخوخته وضعفه ، من مثل قوله :

إمَّا تريني أَصِلُ القُعَّادا ... وأتقى - أن أنهض - الإرْعادا[1]
من أن تبدلتُ بـآدِي آدا ... لم يك يَنْآد فأمسى انآدا[2]
وقَصبا حُنِّيَ حتى كادا ... يعود بعد أعْظُمٍ أعوادا[3]

والجناس واضح فى البيت الثانى ، وهو يشيع فى أراجيزه ، لكثرة ما كان يُعْنَى به من الإتيان بالمصادر وأفعالها ومشتقاتها ، على نحو ما صنع هنا فى الآد وانآد ، وقد جانس فى البيت الثالث بين يعود وأعواد . وكثيراً ما نراه يشتق من الأسماء الجامدة أفعالا ومشتقات ، أو يأتى ببعض المزيدات من الحروف ، وكل ذلك بقصد الإغراب ، كأن الإغراب أصبح عنده يُقْصَد لذاته ، فإن فاته فى اللفظ نفسه أتى به فيما يضعه من صيغ جديدة .

رُؤْبة[4]

سمّاه أبوه العجاج باسم جدّه ، وقد وُلد له حوالى عام ٦٥ للهجرة ، ويظهر أنه عُنى به منذ صغره ، وأنه ما زال به حتى استيقظت شاعريته مبكرة ، إذ نراه يفد معه على الوليد بن عبد الملك (٨٦ – ٩٦ هـ) ، ونراه فى رفقة الشعراء الذين حجوا مع سليمان بن عبد الملك سنة سبع وتسعين[5] . ويظهر أنه كان يولع بالرحلة منذ شبابه إلى الشرق ، فينزل تارة السند وتارة خراسان .

---

(١) القعاد : جمع قاعد ، يريد أنه يكون منهم ويفعل فعلهم .

(٢) الآد : القوة كالأيد . انآد : اعوج وانحنى .

(٣) القصب : كل عظم ذى مخ . حنى : دق ، يريد أن عظمه وهن .

(٤) انظر فى ترجمة رؤبة الشعر والشعراء ٢/٥٧٥ وابن سلام ص ٥٧٩ والأغانى (ساسى) ١٨/١٢٤ وما بعدها و ٢١/٥٧ د والخزانة ١/٤٣ ومعجم الأدباء ١١/١٤٩ وابن خلكان وتهذيب التهذيب ٣/٢٩٠ ولسان الميزان ٢/٤٦٤ والموشح ص ٢١٩ وابن عساكر ٥/٣٢١ وكتابنا « التطور والتجديد فى الشعر الأموى » ص ٣٤٠ . وقد نشر ديوانه آلوارد وخصه بالجزء الثالث من مجموع أشعار العرب .

(٥) طبرى ٥/٣٠٥ .

ومنذ أوائل القرن الثانى يلزم ولاة العراق يمدحهم ، يمدح أولا مسلمة بن عبد الملك ويشيد بانتصاراته على الأزد وصاحبهم يزيد بن المهلب ، ويجترُّ فى هذه الإشادة عصبية عنيفة لقومه تميم ، وقد مضى يمدح هريم بن أبى طحمة المجاشعى أحد قوادهم الذين أبلوا فى القضاء على يزيد وثورته . وتلقانا فى ديوانه أراجيز كثيرة فى مديح خالد القسرى وولاته وفى مديح كثير من رجالات العراق أمويين وغير أمويين ، نذكر منهم المهاجر بن عبد الله والى اليمامة ، وبلال بن أبى بردة الأشعرى نائب خالد على البصرة ، وأبان بن الوليد البجلى نائبه فى شئون الخراج ثم والى فارس ، والحكم بن عبد الملك بن بشر بن مروان ، وحرب بن الحكم بن المنذر بن الجارود ، وعمرو بن عَنْبسة بن سعيد بن العاص . ويَقدُمُ على الوليد بن يزيد بن عبد الملك فيمدحه ، ويمدح مروان ابن محمد آخر خلفائهم ويلجّ فى هجاء خصومه المارقين . وينزل بخراسان . فيمدح نصر بن سيار ويحذِّره من أبى مسلم الخراسانى فى غير أرجوزة .

وجعله هذا الموقف من مناصرة الأمويين يستشعر غير قليل من الخوف والوجل حين تحولت مقاليد الأمور إلى العباسيين ، ويحاول أبو مسلم الخراسانى أن يُذهب عنه روْعه . وكذلك يصنع أبو العباس السفاح . وله فى مديحه أرجوزة طويلة إذ امتدت إلى أربعمائة بيت ، ويمدح من بعده أبا جعفر المنصور . وهو فى أثناء ذلك كله مقيم بالبصرة ، حتى إذا ثار بها إبراهيم بن عبد الله بن الحسن رأيناه يخاف على نفسه ، ويخرج إلى البادية ، ليتجنب الثورة ، وسرعان ما يلبِّى نداء ربه سنة ١٤٥ للهجرة .

ومرَّ بنا أنه كان جَبْريًّا ، يؤمن بأن عمل الإنسان قدر مقدور عليه لا مفر منه ، مما جعله يناقش ذا الرمة فى مذهبه القَدَرىّ على نحو ما أسلفنا . والروح الإسلامية قوية فى شعره ، ويقول بعض من ترجموا له إنه كان يتألَّه . وعنده انتهى فن الرجز إلى كل ما كان ينتظره من وعوثة وصـــعوبة لغوية ، إذ تحوَّل به يُرْضى اللغويين من حوله ويقدِّم لهم كل ما كانوا يطلبونه من الشواذ اللغوية فى الألفاظ وأبنيتها وهيئاتها وما قد يحدث فى بعض الحروف كالهمزة من إعلال ، وكأنما تحوَّل معيناً لا ينفد للأوابد والشوارد ، ومن ثَمَّ غدت الأرجوزة

عنده وكأنها متن لغوى معقد ، أو قل مستغلق ، تستغلق ألفاظه ، إذ يختارها من وحشى الكلام ، بحيث لا يفهمها إلا خاصة الخاصة من اللغويين الذين كانوا يأخذون عنه أمثال يونس وأبى عبيدة وخلف الأحمر وأبى عمرو بن العلاء . وهو لا يكتفى باستغلاق اللفظ من حيث وحشيته وغرابته ، فقد كان يضيف إلى ذلك زوائد تزيده استغلاقا ، زوائد من تغيير فى الحركات أو إعلال فى الحروف أو إتيان بصيغ جديدة فى التصريف بواسطة المصادر والجموع والأفعال ، كأن يقول فى مطلع قافيته المشهورة :

وقاتمِ الأَعْماقِ خاوى المُخْتَرَقْ مُشْتَبِهِ الأَعلام لَمَّاعِ الخفَقْ[1]

فقد حرك فاء الخفق الساكنة وجعلها مفتوحة للإتباع . ومن ذلك إضافة النون الساكنة إلى بعض قوافيه مثل « يا أبتا علك أو عساكن » والإتيان بصيغة فيْعل بفتح العين فى قوله : «ما بال عينى كالشَّعيب العيَّن » والقياس العيِّن بكسر الياء مع التشديد[2] . واقرأ قوله فى وصف الليل :

وجلُّ ليلٍ يُحْسبُ السَّدوسا يَسْتسمع السَّارى به الجُروسا[3]
هَماهِماً يَسْهرن أَورَسيسا علوتُ حين يخضع الرَّعوسا[4]
قَرْع يدِ اللَّعَّابة الطَّسيسا[5]

فإنك تراه يجمع جرساً على جروس ، فيغرب شيئاً ما ، ويعمد عمداً إلى ألفاظ غريبة يحشو بها وصفه من نحو السدوس والرسيس والرعوس ، وجاء بالطست لا بصيغته المألوفة ، وإنما بصيغة الطسيس . وعُنى بأن يلائم بين الرَّوِىِّ

(١) يتحدث رؤبة عن فلاة . قاتم : أسود ، أعماق المفازة : أطرافها البعيدة . مختَرق الرياح : مهبها . خواؤه : خلوه . الأعلام : الجبال يهتدى بها ، يقول إنها متشابهة . لماع الخفق : السراب ، وخفقه : اضطرابه وتحركه .
(٢) راجع الخصائص ٣/٢١٤ ، وسيبويه ٢/٢٧٢ . الشعيب : المزادة والسقاء البالى . العين : سائل الماء .

(٣) جل الليل : معظمه . السدوس : الطيلسان الأخضر . جروس : جمع جرس وهو الصوت
(٤) هماهم : جمع همهمة وهى الصوت الخفى ، الرسيس : الحديث غير البين . الرعوس : الذى يهز رأسه فى نومه .
(٥) الطسيس : الطست ، يريد أن النوم يميل رأسه ويلعب به كما يلعب اللاعب بالطست .

والكلمات الداخلية فى البيت ، إذ اختارها من ذوات السين . وهو مثل أبيه كان يُعْنَى بالجناس كثيراً فى نظمه ، وخاصة جناس الاشتقاق .

واقرأ فى أراجيزه فإنك لا تستطيع أن تخرج من بيت إلى بيت إلا بعد أن تَعْكسه على فهمك مراراً ، وتعود إلى معاجم اللغة تكراراً ، وتنظر فى سيبويه وغيره ممن عنوا بتوجيه الصيغ فى شعره . ومن المؤكد أن أباه هو الذى فتح له هذا الباب ، ولكنه هو الذى انتهى به إلى هذه الصورة المتعمقة فى الإغراب ، إذ كان يُكثر من القياس فى اللغة والتصرُّف فيها بالتفريع والتوليد ، محاولا أن يأتى بكل شاذة . وبذلك تحولت أراجيزه إلى متون لغوية كاملة ، وأخذ يفزع إليه الشعراء الذين كانوا يُعْنون بإدخال الغريب من مثل الطِّرِمَّاح والكُمَيْت ، يأخذون منه الشىء بعد الشىء ليدخلوه فى أشعارهم[1] . وتحوَّل إليه يونس وأضرابه من علماء النحو يسجِّلون رجزه وما يأتى به من مستغلقات لغوية ، كان يحشدها فى أراجيزه من أجلهم ، ونراه يصرِّح بذلك ، إذ يقول فى أرجوزة له « يلتمس النحوىّ فيها قصدى » .

وعلى هذه الشاكلة اقترنت الأرجوزة عند رؤبة بغاية تعليمية واضحة ، وهى غاية لم تلبث أن تحولت بها كما قدمنا إلى الشعر التعليمى الذى أخذ ينظمه الشعراء فى العصر العباسى ، وكأنهم وجدوا فى وفرة موسيقاها ما يتلافون به نَقْص المعانى الشعرية فى هذا الضرب الجاف من ضروب الشعر . ومضى العباسيون يولِّدون من اتحاد مصاريعها صوراً جديدة من المزدوج والمخمس . ونرى الأندلسيين حين يخترعون الموشحات ويزاوجون فيها بين الأوزان ويخالفون بين القوافى يعتمدون فى هذا الصنيع على نظام الأرجوزة فى التصريع ، فيجعلون الشطر وحدة فى الموشحة ، على نحو ما صنع رُؤبة ورُجَّاز هذا العصر فى أراجيزهم . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن الأراجيز وخاصة عند رؤبة هى التى ألهمت ابن دريد حكاياته فى تعليم اللغة كما ألهمت بعد ذلك بديع الزمان الهمذانى والحريرى صنع مقاماتهم المعروفة .

---

(١) الخصائص ٣/٢٩٧ .